امرأة على ملة إبراهيم

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

النحل/ ١٢٠

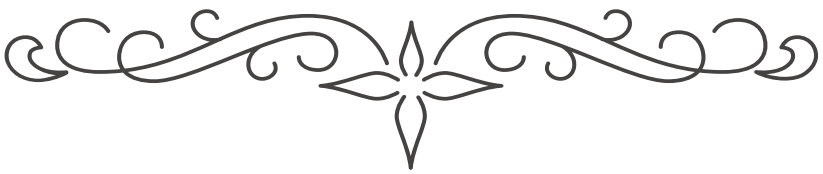

المحتويات

كلمة اللجنة ٥
المقدمة ٩
أوراق ١٣
مكانة الأمومة في أصول الفكر الديني، الصدّيقة الزهراء نموذجا ١٤
هوية المرأة في الإسلام حقيقة ومعالم ثابتة ٢٣
الأمومة والبنى التأسيسية ٣٤
الزهراء (عليها السلام) والمرجعية الفقهية ٤١
الزهراء والمرجعية الحقوقية والاقتصادية ٤٩
المرأة والحصانة الاجتماعية – الزهراء نموذجا ٥٩
مقالات ٧٧
فاطمة الحوراء الأنسية (١ – ٢) ٧٨
فاطمة الحوراء الأنسية (٢ – ٢) ٨٢
الزهراء (عليها السلام) موجود عالم الملكوت (١ – ٢) ٨٦
الزهراء (عليها السلام) موجود عالم الملكوت (٢ – ٢) ٩٤
سيادة المرأة الصالحة تعني سيادة المجتمع ١٠١
المرأة مركز التغيير، والأم تصنع أمة ١٠٧
الموقف المثاليّ للمرأة الواعية ١١٥
حين تتكلم الرحى ١٢٢
أثر تغير الزمان والمكان على الحكم الفقهي – أحكام المرأة نموذجاً ١٢٧
فقه المرأة – قراءة ومحاولات تجديد ١٣٧
محاضرات ١٤٧
قضايا المرأة وإرباك المفاهيم ١٤٨

أصابت امرأة وأخطأت أمّة ١٥٥
العفاف الفاطمي أبعاد وآثار ١٦٣
«لولا عليّ لما كان لفاطمة كفؤ» – قراءة مختلفة ١٧٠
الزهراء منّا بين العقل والنصّ ١٧٦
في الزهراء (عليها السلام) لا تتعدّد القراءات ١٨٥
الزهراء العليمة ١٨٨

كلمة اللجنة

(المرأة، الأمومة والأسرة) مفردات كَثُر حولها البحث والجدل والكلام، ولم تزل معبراً لسياسات وأغراض متباينة، وهي بحقّ من أبرز مفاتيح السعادة والشقاء في المجتمع الإنسانيّ.

ولم يهمل الإسلام منذ مجيئه هذه المفردات بل أولاها عناية فائقة، سواء على مستوى التنظير والتشريع وبيان الحدود والضوابط، أم على مستوى الإعداد وتقديم النموذج العينيّ الكامل والأسوة. وكلّما تجدّدت للإسلام حياة وصحوة وانبعاث في واقع المسلمين، كلّما حضرت هذه المفردات فاعلة مؤثرة.

واليوم وفي عصر الثورة الإسلاميّة المباركة والظهور المتألّق للمنهج السماويّ القويم نجدها أشدّ حضوراً في العمق والسطح، في الخطاب والفاعليّة الميدانيّة، ونجدها أيضاً في أولويّات الضربات الجادّة والموجّهة من العدوّ، وفي مقدّمة ساحات المقاومة المتجددة والمتناسبة مع مدى الهجوم والعداء في مختلف الساحات.

و في ساحتنا الخاصّة كان للعالمة الفاضلة أم عباس النمر (حفظها الله) قدم سبقٍ في معالجة ما يخصّ هذه المفردات، بمختلف الآليّات المتاحة من محاضرات وندوات واستشارات وكتابات، بل قد أحدثت الفاضلة مشاريع خاصّة ومتخصّصة في شؤون المرأة والأسرة سرعان ما عُمّمت على مستوى المنطقة، و من أبرزها إحياء يوم المرأة العالميّ المصادف للولادة المباركة للصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام)، بنحوٍ تتكاتف فيه جهود الناشطات و المجموعات النسويّة

الفاعلة على مدار السنة لتكوين ملامح لوحة فنّيّة ثقافيّة تعاونيّة رائعة تحكي نضجاً و نماءً و تلاحماً بين زواياها الظاهرة البارزة والمستترة الخافية.

وقد ارتأت لجنة (فكر و ذكر) المختصّة بتقرير ونشر آثار العالمة الفاضلة أم عبّاس النمر (حفظها الله) أن تقدّم لقرائها الكرام بمناسبة ولادة الصديقة الطاهرة (عليها السلام) لهذا العام ١٤٣٨هـ هذا الكتاب الذي جمعنا بين دفّتيه ما حصلنا عليه من محاضرات و مقالات و أوراق عمل متعلّقة بالزهراء (عليها السلام)، أو بالمرأة على نحو خاصّ.

سيجد القارئ في هذا الكتاب معالجات علميّة وتربويّة للفكرة والواقع الخاصّ بمفردات (المرأة، الأمومة والأسرة) بخطابات ومجالات متنوّعة: فلسفيّة، عرفانيّة، قرآنيّة، تاريخيّة واجتماعيّة. كما سيقف على تنوّع الأساليب البيانيّة والإقناعيّة بين البرهان العقليّ والنقليّ والتحليل والمقارنة والقراءة المعاصرة للواقع ومعالجتها بالأطروحة المختارة.

ولقد تميّز الطرح والبيان بالقراءة الخاصّة والتأمّل في المصداق العينيّ الكامل للأطروحة الإسلاميّة الكاملة وهو الوجود المبارك لسيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (عليها السلام) في بعديها الملكوتيّ الغيبيّ بمقاماته وعلاماته، والإنسيّ الأرضيّ وما يلازمه من أدوار اجتماعيّة وإصلاحيّة.

وأمّا النظريّات والأطروحات المضادّة فإنّ الأستاذة الفاضلة وإن لم تتعرّض لتفاصيلها وجزئيّاتها بالأخذ والردّ، إلّا أنّها استعرضت أساسيّاتها وأغراضها ومنافذها بما يلزم عرضه وبيانه في ساحتنا الخاصّة، وتركت على القارئ والمتلقّي مسئوليّة التتبّع والاستقراء الجزئيّ والموضوعيّ.

لقد جمع الكتاب مواضيع وكتابات كتبت وألقيت في أماكن مختلفة وأزمان متباعدة ولمستويات متفاوتة في التلقّيّ والخطاب. وهذا ما يفسّر للقارئ التفاوت الذي قد يلحظه في العرض والبيان وما قد يجده من التكرار لبعض المطالب أو العموميّة في بعض الأفكار وحاجتها لمزيد من البسط والاستيفاء. ولكن اللجنة قرّرت تجاوز هذه المسألة لأمرٍ أهمّ وغرض أولى.

لقد بدأنا الكتاب بأوراق العمل التي قدّمت في الملتقيات السنويّة ليوم المرأة العالمي، والتي شاركت بها العالمة الفاضلة أم عباس النمر (حفظها الله) كمحور ضمن محاور تتكفّل بمعالجتها بقيّة المشاركات. ولقد بدأنا بها لاحتوائها على مفاهيم وأسس تأصيليّة لبقيّة أفكار الكتاب، ولكونها مكتوبة بقلم الأستاذة الفاضلة (حفظها الله)، كما هو شأن المقالات التي تتلوها أيضاً لنفس السبب، وختمنا بالتقارير التي أعدّتها اللجنة لدروس ومحاضرات ألقيت في مناسبات عدّة.

وفي الختام نتقدّم بوافر الشكر وخالص الدعاء لجميع من ساهم في إنجاز هذا العمل، ونخص بالشكر أستاذتنا الفاضلة (حفظها الله) لما بذلته وتبذله في هذا السبيل، والله نسأل أن يديم لنا وعلينا ظلّها الوارف، وأن يحشرنا جميعاً في حمى محمّد وآله الأطهار (عليهم السلام).

والحمد لله ربّ العالمين.

لجنة فكر وذكر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين المعصومين الميامين.

تتطلع الأمم والشعوب – بكل أشكالها وأطيافها – جادة للتقدم والنهضة، باحثة عن مواقع العزة والكرامة والسؤدد والمنعة طلباً للذود عن الحياض والحفاظ على الهوية وتحصيلاً للرفاهية والسعادة.

ولكن في ضمن هذا التسابق البشري المحموم تتخبط فيه المناهج والرؤى والأفكار والأيديولوجيات بين مشرق ومغرب، ولعله لم تبلغ حالة التنازع والتدافع على مستوى الطرح المهني والتسويق الفكري والاختصام الأيديولوجي، ما بلغته الإنسانية اليوم.

ولم تكن مفردة المرأة (فتاة وزوجة وأم) غائبة عن مضمار النقاش والبحث والتنازع، بل كان هذا الموضوع من أشد الأمور تطويعاً واستغلالاً وتخبطاً في المذاهب والمشارب المتقاطعة.

وهذا يحكي – فيما يحكي – عن حساسية هذا العنصر (المرأة) في بناء النهضة الإنسانية، وموقعيته في عملية الاستقامة والتكامل الإنساني لأي مشروع نهضوي تقدمي يهدف إلى إسعاد البشرية وتحقيق طموحها المنشود في إقامة مجتمع العدل والكرامة التي يسميها الدين بالاستخلاف.

فلن تستطيع أمة أن تنهض، وتزيل عن كاهلها آصار الجهل وأغلال العادات وقيود الأوثان، مهما أوتيت من أسباب النهوض والغلبة مالم تتوفر على عنصر (المرأة) كمقوم أساس للنهضة الإنسانية القويمة.

فالمرأة ليست مجرد شريكة الرجل وصنوه – وهي كذلك على مستوى البناء الحضاري والنهضة الإنسانية والاستخلاف الرباني – بل للمرأة بما تملك من خصائص، وتنطوي عليه من إمكانيات وتتحلى به من هبات تكوينية في ذاتها وفي أعماقها وبنائها، هذا الكائن وبهذه الخصائص عنصر أساس في إعطاء الحركة الإنسانية والنهضة المرجوة الأفق الإنساني واللون الملكوتي والطابع الإنساني المكتمل.

فالصرح الإنساني الكامل والانبثاقة الإنسانية المستهدفة من كل هذا الوجود، والغرض النهائي من هذه الخليقة التي تتحقق بها حكمة الخلق رهينة بمساهمة المرأة ومشاركتها وأخذها دورها المفروض في هذه النهضة.

وهذه النتيجة هي ما استطاع يراع الأخت الفاضلة (أم عباس) في هذه الدراسات أن يبرهنه ويقرره بأسهل أسلوب وأرقاه.

وذلك من خلال الانطلاق في استكشاف مكنون وإمكانات المرأة النموذجية في تاريخ الإنسانية (الزهراء فاطمة بنت محمد (ﷺ))، وتَلَمُّس معالم ذاتها وأعماقها (ضمن الإمكان البشري) ثم الاستهداء بمسلكها ومنهجها في المضمار العملي والميداني، ونحو معالجتها لشؤون الأمة وشجونها.

فانطلقت هذه الدراسات في نحت مجموعة من المفاهيم والرؤى التي من خلالها تتبين هوية المرأة وماهيتها في أبعادها العرفانية والعملية.

وبلا شك سيكون هذا الإدراك والاستيعاب لعمق هذا الموجود المتميز (المرأة) منصّةَ انطلاقٍ منهجٍ عملي متوافق ومنسجم مع المرأة والمجتمع والنهضة. ويمكننا الإشارة هنا إلى بعض المرتكزات التي بنت عليها (العالمة الفاضلة) هذا البناء التأسيسي في إدراك عمق المرأة وهويتها.

أولاً: صياغة المعايير (الأنثوية) للكمال. وبهذا أضفت على المرأة شخصيتها وهويتها فاستقامت في ذاتها واستقلت في خصوصياتها. وبهذا

استطاعت (الأستاذة أم عباس) أن تفكك هذه العقدة البشرية المستعصية التي أوقعت كثيراً من المجتمعات في آصار الخلط والتخبط في بناء شخصية المرأة، وترتب على ذلك الكثير من الإرباك والخلل الاجتماعي والأسري مما أدى إلى خلل في كل البناء الإنساني والاستواء البشري.

ثانياً: فقاهة الزهراء (عليها السلام) وتشخيص حقيقة الفقه أولاً والفقاهة الفاطمية ثانيا، فالفقه – حسب هذا الفهم الدقيق والإدراك العميق – لم يعد مجموعة من القوالب الجامدة والقيود المحددة لحركة الإنسان بل أصبح أكثر انسيابية ومرونة وعملية. والأهم أن الفاضلة قد أبرزت لوناً خاصاً من التصويب بالزهراء (عليها السلام)، إذ أن المذهب يرى أن الفقيه (الإمامي) معرض للخطأ تبعاً لاهتدائه للدليل أو خطئه، فإن أصاب وإلا فقد وقع في الخطأ (وهذا هو مذهب المخطئة)[1] وهذا المعنى من التخطئة لا يتحقق في شأن الزهراء (عليها السلام) فهي ليست الباحثة عن الحكم، بل الحكم والفقه متقرر بقولها وفعلها وتقريرها.

وهناك الكثير من الجوانب التي استنبطتها التفاتات (الأستاذة الفاضلة) سوف تستوقفك عند مطالعة الكتاب، وستحقق من خلالها المنظومة المتكاملة لبناء شخصية المرأة السوية.

في الختام لا يفوتني الإشارة إلى طبيعة البيئة المخاطبة بهذه الأحاديث التي كانت تتشكل في أغلبها من النخبة النسوية المؤمنة الصالحة، مما يفرض على الأستاذة بعض القيود والامتيازات.

والحمد لله رب العالمين.

سماحة الحجة الشيخ/ عبد الله الطاهر النمر.

(١) مصطلح أطلق على أتباع المذهب الإثني عشري لأنهم يعتبرون أن هناك أحكاماً إلهية واقعية قد يصيبها الفقيه وقد يخطئها، في مقابل المصوِّبة من العامة الذين يرون أن الفقيه مصيب على كل حال.

آوراق

مكانة الأمومة في أصول الفكر الديني، الصدّيقة الزهراء نموذجا[1]

يقول المتابعون في علم الاجتماع الإنساني أنه لم يخلُ عصر ولا زمان من الحديث عن مكانة المرأة، وزخر التاريخ بالاختلاف حول معرفة هويتها وموقعها ودورها وتأثيرها، وإن اختلفت الأغراض والبواعث والدواعي والأسباب المؤدية إلى هذا البحث؛ بين تلوّن بعض بواعثه بالأغراض السياسية والاقتصادية المغرضة، وبين اتسام بعضه بالفلسفية والكلامية الجادة، لكنه – على كل حال – من المسائل الأساسية التي إن خمدت جذوة البحث بشأنها في مكان ما، فلا تلبث أن تبدأ في مكان آخر. ويبدو أنه مادام الفاعل الظاهر على وجه الأرض هما جنسيّ الرجل والمرأة، فلن يقف هذا البحث وتداعياته وتبعاته إلى أن يشاء الله وتحّل مشكلة الظلم العلميّ والقانونيّ في ظلّ المدينة الفاضلة والمجتمع العادل والنظام المرتقب، وتذوب كل الشبهات والأسئلة بتفعيل مشيئة الله على وجه الأرض.

في وسط هذا الأخذ والرد على طول التاريخ حول هوية المرأة، لا شك أن للإسلام كلمته في هذا المجال، فهو دين الحياة الذي يشارك العالم الإنساني همومه واهتماماته.

وإن كانت أذيال هذا البحث واسعة جداً لا يمكن لملمتها في باب من أبواب الفكر الإسلامي، كلامية كانت أو فقهية أو تاريخية أو اجتماعية؛ إلا أن المطلع المنصف يجد أنه في الوقت الذي تاهت فيه المنظمات النسوية الحديثة في الدعوة إلى حرية المرأة، واستقلالها الشخصي والاقتصادي والاجتماعي؛ بدأ

(١) ورقة العالمة الفاضلة في ملتقى المرأة في صفوى ١٤٣٧هـ.

الإسلام التأسيس والتأصيل لهذه المسألة ليحلّها أوّلاً من القواعد بشكل قطعيّ وواضح وصريح، لتصبح المطالبة بحقوق المرأة وحريتها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية محلولة بالتبع بشكل تلقائي وثانوي. وهذه نقطة قوة في منهج الإسلام سواء قبِل بذلك الآخرون أو لم يقبلوا به، فهموه أو لم يفهموه بسبب ما حملوه من صورة مغلوطة للإسلام، أو لأي غرض آخر.

وحيث أن الحديث عن جميع أبعاد هذه الدعوى – كما أسلفت – غزيرة المحتوى واسعة الذيل، فسأتحدث في بعض جهاتها لأصل إلى الفكرة التي أريد بيانها خلال هذه الورقة.

مكانة الأمومة في أصول الفكر الإسلامي

مع أن الأصول الكلامية تعتمد على الأدلة العقلية والفلسفية، إلا أن النصوص المقدسة لها دور الأحكام الإرشادية، ويكفينا قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأن الأمومة: «تحت أقدام الأمهات روضة من رياض الجنة»[1].

من الواضح أن الرواية تتحدث عن مكانة الأمومة بغض النظر عن عقيدة الأم أو عملها أو موقعها، فالجنة تحت أقدامها لأنها (أمّ) فقط، وأما سائر الفضائل فهي تزيدها مكانة على مكانتها وموقعاً على موقعها.

يقول السيد الطباطبائي[2] الفيلسوف الإسلامي ما مضمونه: «المرأة هي جوهر الحياة لأنها لجاذبيتها وسكونها ورحمها ورضاعتها وحنوها؛ تتحقق العناصر الأولى لأول مدنية إنسانية».

(١) مستدرك الوسائل، ج ١٥ ص ١٨٠

(٢) السيد محمد حسين الطباطبائي المعروف بالعلامة الطباطبائي (١٣٢١– ١٤٠٢ هـ. ق) من أبرز فلاسفة وعرفاء ومفكري الشيعة في القرن العشرين. اشتهر بتفسيره المعروف بالميزان في تفسير القرآن، من أبرز كتبه: بداية الحكمة ونهاية الحكمة في الفلسفة.

الزهراء نموذج الأمومة القرآنية

لو أجرينا مقارنة بين مكانة القرآن ومكانة امرأة الإسلام الأولى الصديقة الزهراء (عليها السلام)، فسنجد أن المقارنة بين الصديقة الزهراء والقرآن الكريم من كل الحيثيات مقارنة صحيحة ولا يردّها مسلم بعد قول النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّي تَارِكٌ فيكُم خَليفَتين كتاب اللهِ وَأهل بَيْتي وإنّهمَا لن يَفْتَرقا حتى يَردَا عليّ الحَوض»[1] فليس للقرآن مكانة ومرتبة وجوديّة إلا وهي للزهراء (عليها السلام)، وإلا لم يصدق قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). وعليه يمكن القول أنه لا تخلو من الزهراء (عليها السلام) آية لتقاس ببعض القرآن دون بعض.

ولكن القرآن في حدّ نفسه تختلف آياته في الإعجاز والإبداع والوضوح والخفاء والإحكام والتشابه؛ كما تختلف فصول أي كتاب معرفيّ، فإن كان يستحيل التفكيك بين فاطمة والقرآن، إلا أنه يمكن عقد مقارنة بين الزهراء والقرآن في حيثية معيّنة يمكن أن نعنونها بـ (أمّ الكتاب وأم الأئمة).

فمن خلال النظر إلى هذا البعد الأمومي نجد أن آيات القرآن تنقسم – بلحاظ أصالتها ووضوحها وموقعها ومرجعيتها وتبعيتها إلى آيات محكمات هنّ أم الكتاب، تتميز بأنها واضحة جليّة تهدي للرشاد والتكامل، وأخر متشابهات، وهي ما يكتنف اتّباعها الضلال والفتنة والاختلاف، والاقتصار عليها يخلق التيه والضياع. ولا يتبعها ويقفو أثرها إلا من كان في قلبه زيغ. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[2].

---

(١) مسند أحمد ابن حنبل.

(٢) آل عمران / ٧

إن آثار الآيات المحكمات هي آثار الأمومة ومقتضياتها، أي أن هناك آثار خاصة للآيات التي هي أمّ الكتاب، وهي نفسها موجودة في أم الأئمة (عليهم السلام) وبنفس المرتبة. هذه الآثار هي: المرجعية، وإظهار الاستعدادات، وبتر أسباب الانحراف، وسنبين ذلك بشيء من التفصيل:

١. المرجعية:

من الواضح أننا نرجع في كل الأبحاث العلمية العقلية منها والنقلية إلى أمهات المسائل والأصول، ليكون مسلكنا وسيرنا مطابقاً لعلميّتها. ففي المنطق العقلي هناك ما يسمونه بأمّهات القضايا مثل (قاعدة التناقض)، وفي مجال العقل العملي والأخلاقي هناك أمهات الوجدانيات مثل (الحسن والقبح العقليان) كما أنه في كل العلوم هناك قضية أساسية هي أمّ كل مسائله، تفسرها جميعا. والقرآن ككتاب إلهي ونصّ مقدس توجد فيه آيات تسمى أمّ الكتاب تعتبر لها المرجعية الأولى لتفسير سائر آياته.

٢. إظهار الاستعدادات:

الأم هي التي تغذّي وتربّي وتظهر الاستعدادات المضمرة في الطفل منذ أن يتكون نطفة في بطنها، إلى أن تتولى حضانته وتربيته في أحضانها. وكذلك الآيات التي هي أمّ الكتاب فإنها تحمل في أحشائها معاني الآيات المتشابهات وتوجهها وتظهر مفاداتها ومعانيها.

٣. بتر أسباب الانحراف:

الأمّ تحتضن الطفل وتقطع وتبتر كل أسباب الضلال والانحراف والمفاسد التي تؤدي إلى ضرره، وتحرص على بقائه بعيداً عن المضارّ أشد الحرص بمقتضى الأمومة. والآيات التي هي أمّ الكتاب لها نفس الدور، فإذا انفصلت الآيات المتشابهات عن أحضان المحكمات اتصلت في الأذهان بأسباب الزيغ والضلال.

بين أم الكتاب وأم الأئمة

إن وصف الزهراء (عليها السلام) بأمّ الأئمة هو وصف موضوعي وقيمة واقعية وليس وصفاً طريقيّاً يجعلها صرف معبر طبيعي لوجود الأئمة، فلقد جاءت هذه السمة للصديقة الزهراء (عليها السلام) في نصوص كثيرة، ومن أهمها ما جاء في زيارتها من باب مقام بيان الفضيلة والموقعية والمدح والإطراء.

جاء في زيارتها (عليها السلام): (السَّلامُ عَلَى الْبَتُولَةِ الطَّاهِرَةِ وَالصِّدّيقَةِ الْمَعْصُومَةِ وَالْبَرّةِ التَّقيّةِ سَلِيلَةِ الْمُصْطَفَى وَحَلِيلَةِ الْمُرْتَضَى وَأُمِّ الْأَئِمّةِ النُّجَبَاء)[1] وجاء في إحدى الزيارات الجامعة التي يزار الأئمة (عليهم السلام) بها: (اللّهُمّ وَصَلِّ عَلَى الطّاهِرَةِ الْبَتُولِ الزّهْرَاءِ ابْنَةِ الرّسُولِ أُمِّ الْأَئِمّةِ الْهَادِين)[2] وورد: (السَّلامُ عَلَى خَصِيمَةِ الْفَجَرَةِ السَّلامُ عَلَى أُمِّ الْأَئِمّةِ الْبَرَرَةِ)[3] (السَّلامُ عَلَى سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَبِنْتِ سَيِّدِ النَّبِيِّينَ وَأُمِّ الْأَئِمّةِ الطّاهِرِين)[4]

ولو طبقنا خصائص الآيات المحكمات على السيدة الزهراء (عليها السلام) سنجدها منطبقة تماماً فأم الأئمة تحمل خصائص أم الكتاب التي هي: المرجعية، وإظهار الاستعدادات، والقدرة على بتر أسباب الضلال.

● المرجعية:

فاطمة (عليها السلام) بالقياس للأئمة هي من أحكم الآيات التي لها المرجعية كما هو متظافر في الروايات ومتواتر بأشكال وأنحاء كثيرة، منها ما ذكرناه في بداية حديثنا، ويكفينا قول الإمام الحسين (عليه السلام) وهو يتحدث مبرراً ومحتجّاً حين خرج لمواجهة الطغيان والانحراف وبتر الباطل، وهو كهلٌ قد خطّ الشيب لحيته

---

(١) مصباح الزائر.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩٩ ص ٢٠٠

(٣) بحار الأنوار، ج ٩٩ ص ٢٢٠

(٤) بحار الأنوار، ج ٩٩ ص ١٨٠

قائلا: «يَأبَى اللهُ لنَا ذلكَ ورَسُولُهُ والمؤمنُونَ، وحجورٌ طابَتْ وطَهُرَتْ»[1]

● إظهار الاستعدادات:

فاطمة (عليها السلام) تفسّر معاني الأئمة جميعا، وتظهر آثارهم واستعداداتهم الروحية والمعنوية والعلمية والفكرية والوحيانية، لأنها تورثهم النوريّة؛ لأن نور الأئمة اشتق من نورها اشتقاقاً تكوينياً وجودياً مرتبيّا[2] ،كما تشتقّ معاني الآيات المتشابهة من أمهاتها المحكمات، لتصبح للمتشابهات أنوار إرشاد وأعلام هداية.

● القدرة على بتر أسباب الضلال:

الزهراء (عليها السلام) قادرة على قطع الفساد والزيغ والأهواء، لأن فاطمة هي الكوثر، وهي التي بوجودها بتر الله شانئ الرسالة، ليس في صدر الرسالة؛ بل في كل عصر وفي كل زمان. ومن هنا يكون ابنها المهديّ قاطع حبائل الكذب والافتراء ومبيد أهل الزيغ والأهواء.

يقول السيد القائد الخامنئي (حفظه الله): «فإذا كان هناك مثل لأمومة الزهراء فهي آيات الله المحكمات. وإذا كان هناك ما يستطيع أن يكون له دور يشابه دور أم الأئمة فهنّ آيات الكتاب».

الأمومة مقام لكل امرأة

إن مقام الأمومة هو بالأصالة للصديقة الطاهرة حين نقرنها بالقرآن، وكل امرأة تمتلك هذه المقامات الثلاثة (المرجعية، وإظهار الاستعدادات، وبتر

---

(١) من خطبته (عليها السلام) في يوم عاشوراء.

(٢) عن أبان بن تغلب قال: قلت: لأبي عبد الله (عليه السلام) يا بن رسول الله لِمَ سمّيت الزهراء (عليها السلام) زهراء؟ فقال: «لأنها تزهر لأمير المؤمنين (عليه السلام) في النهار ثلاث مرات بالنور... فلم يزل ذلك النور في وجهها حتى ولد الحسين (عليه السلام) فهو يتقلّب في وجوهنا إلى يوم القيامة في الأئمّة منّا أهل البيت إمام بعد إمام» علل الشرائع، ج١ ص١٨٠

أسباب الفساد).

فأما المرجعية: فلم يعد خفياً أن شرط الذكورة في المرجعية والتقليد أمر مناقَش فيه ودليله مخدوش.

وأما إظهار الاستعدادات عند الأبناء: فالرجوع إلى كتب علم التربية والاجتماع وكلمات أهل الاختصاص دليل على ذلك.

وأما قدرة الأم على بتر الفساد: فالوجدان والتجربة الخارجية شاهدان على أن الأم أشد حرصاً وأكثر انفعالاً وحساسية وأسرع وأسبق في اكتشاف انحراف الأبناء ومعالجته.

ومن نافلة القول التذكير بأن للمرأة وظائف وأدوار وصفات عدّة فهي بنت وزوجة وأخت، وكل هذه الأدوار والوظائف لها عمر معين ثم تبقى سمات طريقية ينتهي دورها لتدخل مرحلة تالية، أما الأمومة فهي صفة أساسية في أنوثتها، ملازمة لوجودها، وَلدت أو لم تلد، شابت أو هرمت، بقيت في دار الدنيا أم رحلت. المرأة والأمومة اسمان لموقع وجوديّ واحد. وإذا كان الشارع قد نهاها عن إظهار خصائصها الأنثوية، فقد أمرها بالحذاقة والتعلّم والتفنن في أداء وظيفتها الأمومية.

عناصر الأمومة ومشاريع التخريب

مما يلفت له أن هذه العناصر الثلاثة للأمومة أصبحت هي الأركان التي تُستهدَف بالهدم والتخريب من قبل كل المشاريع السياسية والاقتصادية والسلطوية التي يراد بها هدم هذا الحصن الأول داخل المجتمعات البشرية.

فالأم تحارَب اليوم في الركن الأساسي لأمومتها وهو مرجعيّتها، فتُصرف عن إدارتها لأسرتها بإشغالها بسفاسف الأمور، أو بتضعيف دورها عبر حصره في

وظائف قشرية وثانوية، في حال أنه كما تتطلب المرجعية أن يرجع المقلّد بشكل تلقائي معنوي وعلمي لمرجعه في كل ما يحتاجه؛ فالأمومة تقتضي أن يرجع الأبناء للأم في كل ما يحتاجون مادياً ومعنوياً وفكرياً وعاطفيا، ولا يمكن أن تكون الأم مرجعاً وهي منشغلة بتوافه الأمور!

كما أننا نشهد عملاً دؤوباً وموجّهاً لهدم الركن الثاني وهو الفطنة في اكتشاف الاستعدادات لدى الأبناء، والتي هي محصول تواصل الأم الدائِم بأبنائها وقربها منهم، الأمر الذي بات اليوم مُكنة صعبة المنال بسبب الأجهزة والأصدقاء ومختلف وسائل التواصل التي احتلت هذا الموقع وسيطرت على منافذ الاتصال الأمومي.

أما الركن الثالث للأمومة والذي يتمثل في بتر أسباب الانحراف، والذي يقوم على التأثير الوعظيّ والإرشادي لإغلاق معابر الشيطنة، هذا الركن لا شك أنه سينهار بانهيار الركنين الأوليين، فماذا يبقى للأمومة من عمود تتوكأ عليه؟

التوصيات

ونحن في هذا الاجتماع الواعي والجاد، وانطلاقاً من هذه الرؤية؛ ندعو المؤسسات الاجتماعية والثقافية والحوزوية والتربوية أن تتعاضد لإعادة الأمومة للأمهات، وإليكم بعض الآليات:

١. إعطاء الأم موقعها ومكانتها ومقامها الروحي من قبل الآباء والأقرباء بتكريمها كما يكرم المراجع الروحيون.

٢. تثقيف الأم على أولوية دورها الأمومي حين يتعارض أداء وظيفتها الأمومية مع سائر مهمات الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتحمل مسؤولية

البيت. فإن الأم تغذي الفكر والعقل والروح وهي وظيفة تحتاج إلى بذل الوسع والطاقة فلا يجب أن يزاحمها دور آخر.

٣. عقد ندوات ودورات وملتقيات لتحديد المخاطر التي يتعرض لها هذا الجيل، سواء كانت مضار بدنية أو تربوية أو سلوكية.

٤. تواصل الجهات الواعية لوضع برامج جادة لملء أوقات الفراغ للشباب عبر تنظيم زيارات وجلسات معهم وكذلك مع الأطفال لتوعيتهم على المخاطر التي تحيط بهم.

هوية المرأة في الإسلام حقيقة ومعالم ثابتة[1]

للحديث حول هويّة المرأة لا بدّ من طرح التعريف الذي تتبنّاه المناهج والمدارس الأخرى، ثم نعرض التعريف الذي نرتئيه نحن المسلمون لنقارن بين التعريفين:

هوية المرأة بين النظرية الغربية والإسلامية

يتّجه الغرب في تعريفه لهويّة الأشياء للاهتمام بالنتائج من خلال التجربة التي هي أوسع ميادين المعرفة عندهم، فهم يجرّبون أكثر من ظاهرة وبأكثر من نحو، وفي أكثر من بيئة اجتماعية، ثم يدرسون النتائج التي تتأتى من هذه التجربة، سواء في مجال التربيّة أو المرأة أو أيّ مجال له ارتباط بمعرفة هوية الإنسان.

أمّا نحن أصحاب المنهج الإسلاميّ فإنّنا وإن كنّا لا ننكر أهمّيّة التجربة كباب واسع من أبواب المعرفة، في كلّ الشؤون الأخلاقيّة والإنسانيّة والمعرفيّة والكلاميّة، إلا أننا نرى أنّها ليست المنهج الكامل التامّ الذي يوصلنا لمعرفة هويّات الأشياء. لأنّ أصل عنوان الهويّة أعمّ من النتاج الذي يحصد في هذه الدنيا، خصوصاً إذا كنّا نتحدّث عن هويّة موجود أبعاده أوسع من حدود هذه الدنيا وأسبق.

(١) ورقة العالمة الفاضلة في ملتقى المرأة السنوي ١٤٣٤هـ.

نعم، هناك روايات وأمثال كاشفة عن دور التجربة في الوصول إلى نتائج معرفيّة، كتلك التي تتحدّث عن الفعل وردّة الفعل، فعن أمير المؤمنين (عليه السلام): «من عاب عيب ومن شتم أجيب»[1]،

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «صنيع المعروف يدفع ميتة السوء، والصدقة في السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر وتنفي الفقر»[2] وقيل: (من اغتاب اغتيب). هذه نتائج يمكن الوصول إليها بالتجربة، إلا أنّ مجال التجربة محدود ولا يمكن أن تكون التجربة منهجاً يتناسب مع كلّ موضوع مطروح للبحث.

هوية المرأة في الإسلام

في النظرية الإسلامية يُنظر لهويّة المرأة باعتبارها غير محدودة الأبعاد، لذلك لا يمكن إخضاعها للتجربة، فالتجربة محدودة، في حين أنّ هويّة المرأة موضوع ذو أبعاد وحيثيّات غير محدودة. لذلك نحن نعتقد بأن كثيراً من المعارف منحصرة على نحو التمام والكمال في المنهج الإسلاميّ. فالإسلام عندما يعرّف هويّة الأشياء في حقيقتها فإنّه يعتني بأمرين:

الأوّل: معرفة المبدأ.

الثاني: معرفة الغاية والمنتهى.

فلكي يعرّف الإسلام شيئاً لا بدّ من معرفة نقطة انطلاقه وموقع انتهائه، وهو ما يسمى بتعبير الفلاسفة (العلّة الغائيّة)، بينما خلط الغرب بين الوظيفة والعلّة الغائيّة، فعمدوا إلى تحديد وظيفة المرأة من أجل تشخيص هويّتها، بينما

(١) كنز الفوائد، ج١ ص ٢٧٩

(٢) مستدرك الوسائل، ج ١٥ ص ٢٣٤

يقول الإسلام أنّ الوظيفة شيء والهويّة شيء آخر، وإن كان بينهما ارتباط وحبل اتّصال ممتدّ.

ولكي نحدّد هويّة المرأة ينبغي أن نعرف أوّلا هويّة الإنسان بما هو إنسان في الإسلام:

هويّة الإنسان بحسب القرآن تتمثّل في كونه خليفة الله سبحانه وتعالى في الأرض، وفي طيّات هذا الاصطلاح مضامين ومعانٍ كثيرة وعميقة.

وخلافة الله في الأرض دور يحتاج إلى تعليمين:

الأوّل / تعليم نظريّ: وقد جاء القرآن بأعلى وأكمل مستوى من التعاليم النظريّة، التي تحقّق هذه الهويّة في الواقع الأرضيّ، فالقرآن عندما تحدّث عن الإنسان بما هو إنسان قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] وقد فصّل القرآن في الحديث حول الخلافة من الجهة النظرية.

الثاني / تعليم عمليّ: ويتمثّل في تقديم النموذج، فكما طرحت الرسالات السماويّة نماذج من الأنبياء والصالحين الذين مثّلوا هذه الخلافة على نحو التمام، فالإسلام كذلك طرح النموذج الأكمل والأعلى والأسمى والأرقى والأتمّ، وهي السّيدة الزهراء (عليها السلام)، التي هي سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين.

فإذا أردنا تحديد هويّة المرأة في نظر الدين والإسلام فعلينا أن نرجع إلى

(١) البقرة/ ٣٠

هذين المرجعين الأساسيين: المرجع النظريّ الذي هو القرآن الكريم، والمرجع العينيّ العمليّ التي هي الصديقة الزهراء (عليها السلام)، وسنتناول هذين الأساسين بشيء من التفصيل:

أوّلا/ المرأة في القرآن: (التعليم النظريّ)

لم يميّز القرآن الكريم بين المرأة والرجل في أصل الخلق، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، فليس هناك تفاوت في أصل الخلقة وأصل الوجود بين المرأة والرجل، وليس هناك تفاوت بينهما في مسألة الخلافة.

والفرق بين آدم وحواء كان فقط في اختصاص آدم (عليه السلام) بالولاية وحمل الرسالة، أمّا في أصل الخلافة بمعنى اجتماع الأسماء والصفات الإلهيّة والتمثيل الواقعيّ لهذه الاسماء والصفات؛ فلا تفاوت بين أمّنا حواء وأبينا آدم.

هذا المنهج القرآنيّ في تعريف هويّة المرأة يعتبر من المناهج الجديدة، والذي بدأ بطرحه السيّد العلامة الطباطبائيّ (قدس سره) لكي يعالج به كثيراً ممّا ورد عندنا في التراث الدينيّ، والذي ربّما يشعرنا بالتمايز بين المرأة والرجل من حيث الخلقة والوجود. وتبعه على هذا المنهج تلامذته كالشهيد المطّهريّ (قدس سره)، والشيخ الجواديّ الآمليّ. والثقافة السائدة الآن في فكرنا وثقافتنا الشيعيّة إنّما تعود إلى أصل هذا التنظير الذي وضعه السيّد الطباطبائيّ رحمة الله عليه.

ونحن نعتمد النص القرآني، ونقدّمه على جميع التراث الديني استناداً على وصايا أهل البيت (عليهم السلام) أنفسهم. عن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: «انظروا أمرنا وما جاءكم عنا، فإن وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به وإن لم تجدوه

(١) الحجرات/ ١٣

موافقاً فردوه، وأن اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده وردوه إلينا نشرح لكم من ذلك ما شرح لنا».[1]

فإذا صادفتنا روايات من قبيل: (المرأة شرّ كلها، وشرّ ما فيها أنّه لا بدّ منها)[2] فلا يمكن لنا أن نقبل هذه الرواية، لأنّ الرؤية القرآنية في الخلق تنفيها، تلك الرؤية المتمثّلة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[3] إذ لا يمكن أن يخلق الله سبحانه الشّر ثم يحكم على هذا الشّر بأنّه حسن وأنّه هو الذي خلقه جلّت قدرته!

كما أنّ الدليل العقليّ أيضاً يرفض ذلك، حيث أنّ الشرّ أمر عدميّ كما هو متسالم عليه، والأمر العدميّ لا يحتاج إلى خلق وإيجاد، إذ ليس له حصّة من الوجود.

فإذا جعلنا القرآن مرجعا، فسوف نرى أنّ كلّ هذه الروايات التي تُشعر بنحو من الدونيّة أو عدم الكرامة للمرأة هي روايات مرفوضة بنصّ الآيات القرآنيّة، فالقرآن هو الأصل والمرجع الذي تعرض عليه الروايات، والقرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.[4]

ثانيا / النموذج الكامل للمرأة: (التعليم العمليّ)

لا شّك أنّ الحديث عن المصداق العينيّ هو أقرب إلى تجربة الإنسان الحسّية، فالتعليم بالنموذج (المصداق) صالح ليشمل جميع مناهج المعرفة،

(١) الأصول الأصيلة للفيض الكاشاني. ف

(٢) بحار الأنوار، ج ١٠٠ ص ٢٥٢

(٣) السجدة/ ٧

(٤) الإسراء/ ٧٠

بما فيها منهج الحسّ والتجربة.

لقد كانت الزهراء (عليها السلام) نموذجاً تحتذيه المرأة، فكانت سيدة نساء العالمين، وبدراسة هذا النموذج (السيّد) المتكامل يمكن أن نخرج بتصوّر صحيح وسليم للهويّة الكاملة والنموذج الذي يجب أن يحتذى، والذي هو الوجه الآخر للقرآن إذ قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»[1] أي ليس هناك فرق بين النموذج النظريّ المتكامل في القرآن وبين النموذج العمليّ المتجسّد في الصدّيقة الزهراء (عليها السلام).

الحديث عن هذا النموذج المتكامل والذي هو الصدّيقة الزهراء (عليها السلام) نختصره في بعدين: بعد كلاميّ وعرفانيّ، وبعد عمليّ.

١ / الزهراء النموذج في البعد الكلاميّ والعرفانيّ:

يعتبر هذا البعد تأسيسيّاً للبعد العمليّ، ويعني اكتمال وجودها الفطريّ (عليها السلام). فالفطرة النظيفة الأساسيّة هي في الحقيقة ليست إلا قطرة من ساق العرش، والفطرة التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها لا انفكاك بينها وبين الدين والعقل وكلّ خير وفضيلة، فمن لا فطرة له لا عقل له، ومن لا عقل له لا دين له. وهذه المفاهيم (العقل والدين والفطرة) هي تجلّيات مختلفة لحقيقة واحدة.

فإذا كان المولود يولد على الفطرة، وأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه[2] فإنّ الزهراء (عليها السلام) التي نشأت بين أب كرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمّ كالسيّدة خديجة – التي هي إحدى سيّدات أهل الجنّة – قد بقيت فطرتها نقية طاهرة كما هي قطرة من ساق العرش، أو كما ورد في الزيارة (وَتُفّاحَةِ الفِرْدَوْسِ وَالْخُلْدِ)[3]، هذه

---

(١) لما صدر النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من حجّة الوداع قال على المنبر: «يا أيّها الناس إنّي مسؤول وإنكم مسؤولون... إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» ينابيع المودة ص ٣٧، المنقول من جامع الترمذي.

(٢) قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه». بحار الأنوار، ج ٣ ص ٢٢

(٣) ورد في بعض زياراتها (عليها السلام) (سَيِّدَةِ النِّساءِ، وَمُبَشِّرَةِ الأَوْلِياءِ، خَلِيفَةِ الْوَرَعِ وَالزُّهْدِ، وَتُفّاحَةِ الفِرْدَوْسِ وَالْخُلْدِ، الَّتي

الفطرة عندما تتضوع وتتجلى وتبرز إلى الخارج فسوف تعكس (السيادة)، والسيادة تعني طرد كلّ أسباب الفقر والجهل والظلمات والحاجة.

السيادة في الواقع تقتضي الغنى الذاتيّ – بالقياس إلى سائر الموجودات وليس الله سبحانه – لأنّ الإنسان مهما كان غنيّاً في ماله وإمكانيّاته وما تحت يديه يبقى هذا غنى عرضي، والغنى الأساسيّ إنّما هو غنى الذات، وغنى الذات يعني سعة العلم، وبتعبير آخر هو (النور)، ونحن نعرف أنّ الزهراء (عليها السلام) هي النور، وهي نور النور، والدعاء المنسوب لها والمعروف بدعاء النور[1] يحكي هذا المضمون الذي نعبّر عنه بالغنى الذاتيّ وطارديّة الجهل، فأعلى مستوى يمكن أن يصل إليه الإنسان في تلقّي المعرفة – التي هي الغنى الحقيقي – هو الإلهام والوحي، وقد بلغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أعلى الدرجات في تلقّي المعرفة، وأعلى مستويات التعليم هو التعليم الموهبيّ والذي هو من قبل الله وبلا واسطة، وقد فاق فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلّ الأنبياء – إذ أنّ الأنبياء يختلفون في درجات اتّصالهم بالوحي – بل فاق جبرئيل نفسه حتّى قال: « لو دنوت أنملة لاحترقت ».[2]

هذا الاتّصال بين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والوحي، كان له فيه مشارك آخر وهو الصدّيقة الزهراء (عليها السلام)، فإنّ قولها بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « قَدْ كَانَ جبْرِيلُ بالآياتِ يُؤْنِسُنَا »[3] ليس معناه الأنس الذي يشعر به سائر المسلمين، إذ يسمعون ما يأتي به جبرئيل من خلال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولو كان هذا هو المعنى لما كان هناك تفاوت بين الزهراء وسائر المسلمين! لقد كانت تشير إلى

شَرَّفْتَ مَوْلِدَها بِنساءِ الْجَنَّة) بحار الأنوار، ج ٩٧ ص ١٩٩

(١) « بِسْمِ اللهِ النُّورِ بِسْمِ اللهِ نُورِ النُّورِ بِسْمِ اللهِ نُورٌ عَلى نُورٍ بِسْمِ اللهِ الَّذي هُوَ مُدَبِّرُ الاَمورِ بِسْمِ اللهِ الَّذي خَلَقَ النُّورَ مِنَ النُّورِ، اَلْحَمْدُ للهِ الَّذي خَلَقَ النُّورَ مِنَ النُّورِ..... » مهج الدّعوات، ص ١٤٢

(٢) بحار الأنوار، ج ١٨ ص ٣٨٠

(٣) الخطبة الفدكية، قد كان جبريل بالآيات يؤنسنا فغاب عنا فكل الخير محتجب

الوجود الجبرائيليّ الذي هو أعلى مستوى لتعليم الإنسان من قبل السماء، ليس في مستوى رقي الإنسان من الأرض للسماء وإنما في نزول العلم من السماء إلى الأرض. هذا الوجود الجبرائيليّ هو معجون بين وجود رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ووجود الزهراء (عليها السلام)، ولذلك كانت عذاباتها بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شيء لا يوصف، لأنّها قد فقدت جزءاً أساسيّاً من امتداد وجودها الروحيّ والسماويّ، وهذا ما جعل جبريل (عليه السلام) ينزل عليها بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليؤنسها.

لقد كانت الزهراء (عليها السلام) في البعد العرفانيّ والروحيّ – وهو البعد الأصيل في ولايتها – في أعلى قمّة السيادة، فسادت نساء العالمين من الأوّلين والآخرين.

وهذه السيادة التي جسّدتها السيّدة الزهراء (عليها السلام) تشكّل بعداً من هويّة المرأة في وجهة النظر الإسلاميّة. هذا البعد لم تختصّ به الصديقة الزهراء (عليها السلام) من باب القرار الإلهيّ، وإنّما استحقت ذلك بكفاءتها وبجدارتها وبتمكّنها، فإنّ الله سبحانه وتعالى باسط اليدين بالعطيّة، ولو كان هناك امرأة تستطيع أن تصل إلى هذا المستوى فإنّ عطايا الله سبحانه وتعالى تفيض ولا تغيض.

علينا أن نلتفت أن البعد العرفانيّ والكلاميّ والعقائديّ جزء من الهويّة المكونة للمرأة من وجهة نظر الإسلام، وإذا أغفلنا هذا العنصر الأساسيّ والأصيل، فثقوا أنّنا سوف نخطئ في كلّ دراسة ندرسها بخصوص هويّة المرأة، لأنّه بُعد تتفوّق فيه المرأة على الرجل بأشواط، ولأنه بعد تمتلك المرأة فيه ما يمكنها من الإبداع والتفوق.

٢ / الزهراء النموذج في البُعد العمليّ:

إنّ من أقوى المؤثرات في صناعة هويّة الإنسان هو البيئة الاجتماعيّة، فالظروف والمناخ والوالدين والأصدقاء عوامل لها بالغ الأثر في صناعة الهويّة.

وإذا قرأنا حياة الزهراء (عليها السلام) ضمن المناخ الاجتماعيّ الذي أثّر في صناعة هويّتها (عليها السلام)، سنجد أنّ بيئتها هي البيئة الأولى التي احتضنت الرسالة،

واحتضنت الدين في جهاده وتضحياته وفدائه، ولم يحدث أن تراجعت (عليها السلام) في أداء وظيفتها فقد كانت واعية بكلّ التدافعات والتجاذبات الاجتماعيّة – على تعقيدها – وكانت تأخذ أكمل وأحسن المواقف منذ نعومة أظفارها، لا من أجل بنوّتها لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل لحبّها لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأننا يجب أن نعرف أن العلائق الاجتماعية و الأبويّة والأموميّة إذا كانت سبباً لتحريك الإنسان، فهي لا تكون مورداً للتقديس وإعطاء الثواب عليها، فإن الله يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[1] فإذا لم يكن الدافع انتخابيّاً واختياريّاً فلا قيمة للعمل.

إن الدافع والمحرك لعمل الزهراء (عليها السلام) هو حب الله ورسوله، لا لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أبوها بل لأنّه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولأنّها تعي مقتضيات الرسالة، وقيمة عملها ومواقفها هو هذا الدافع المقدس.

ثم بعد أن نتصوّر هذه البيئة التي نشأت فيها الزهراء (عليها السلام) لننزل إلى المستوى العمليّ الإجرائيّ في حياتها (عليها السلام):

سنجد أنه أثناء حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي محضر أمير المؤمنين (عليه السلام) كان الصوت الذي يجب أن يُسمع هو صوت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام)، لذلك كان دور الزهراء (عليها السلام) هو دور المتأدّب بالصمت في محضر الولاية، وهذا بحدّ نفسه قيمة تشكّل جزءاً من هويّة المرأة المؤمنة.

من المهم أن تحدد المرأة المؤمنة عنصر الولاية الرابط بينها وبين الله سبحانه، لأنّه عنصر أساسيّ عندما تعرفه المرأة المسلمة، وتعرف أنّ هذا هو طريقها لتحديد هويّتها، تكون قد اهتدت فعلاً إلى إتمام هذه الهويّة وتكميلها،

(١) التوبة/ ٢٤

واجتذاب الفضائل في هويّتها الإنسانيّة، وعندما تخسر هذا العنصر تكون قد خسرت عنصراً أساسيّاً من هويتها.

ثم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وانحراف التجربة الإسلاميّة، كانت سيرة السيّدة الزهراء (عليها السلام) هي سيرة الله تماما. يقول الله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾[1] عندما تبتعد عن الله سبحانه وتعالى وتتحوّل إلى مسرف فليس ديدن الله أن يعرض عنك وينقطع عن ذكرك، هذا ديدننا نحن البشر عندما نختلف مع بعضنا، أما الصديقة الزهراء (عليها السلام) فقد اتّبعت سنّة الله تعالى، فمع وصولها إلى حدّ اليأس من حال المسلمين لدرجة أن تقول لهم: «أَصبحتُ والله عائِفَةً لدُنياكُم قالِيَةً لِرجالكُم»[2] إلا أنّها كانت متمسّكة بمحاولات الإرشاد والهداية والشفاعة إلى آخر لحظة.

هذه السيرة والسلوك الربّاني العمليّ الذي نراه في حياة الزهراء (عليها السلام) هو حكاية عن جزء أساسيّ من هوية المرأة، فإن المرأة هي أمّ أينما تضعها. المرأة كلّها تحنان إلهيّ، وهذا النوع من الحنان لا يتوقّف حتّى مع اليأس من الطرف الآخر، ولذلك كان أحد أسمائها (عليها السلام) (الحانية).

شيء آخر يلفتنا في حياة الزهراء (عليها السلام) في بعدها العمليّ، وهو أننا لو قارنّا أفعالها بأفعال الأنبياء لوجدناها تتفوّق على الأنبياء، وسنعرض شاهداً واحداً على ذلك:

يحدثنا القرآن أن نبي الله نوح (عليه السلام) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ

---

(١) الزخرف/ ٥

(٢) عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين (عليها السلام) قالت: لما اشتدت علة فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله)، اجتمع عندها نساء المهاجرين والأنصار، فقلن لها: يا بنت رسول الله: كيف أصبحت من علتك؟ فقالت (عليها السلام): «أصبحت والله عائفة لدنياكم، قالية لرجالكم، لفظتهم قبل أن عجمتهم وشئتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الحد، وخور القناة، وخطل الرأي، و «بئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون»، لا جرم لقد قلدتهم ربقتها، وشننت عليهم غارها فجدعا، وعقرا، وسحقاً للقوم الظالمين». معاني الأخبار.

فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾[1] ثم بعد أن يئس نوح من قومه قال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيّارًا﴾[2] أمّا الزهراء (عليها السلام) فمع أنّها قد دعت قومها ليلاً ونهاراً وسرّاً وجهارا، ولم يزدهم دعاؤها إلا فرارا، إلا أنّها في آخر لحظاتها طلبت من أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يجعل كتاب شفاعتها في أمّة أبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) معها في القبر حتى تلقى الله بالشفاعة لهم، وكان هذا الكتاب والعهد الذي فيه هو مهر زواجها من عليّ (عليه السلام). جاء في الخبر أن من جملة ما أوصت به الزهراء (عليها السلام) إلى عليّ (عليه السلام) أنها قالت: «إذا دفنتني ادفن معي هذا الكاغد[3] الّذي في الحقّة. فقال لها سيّد الوصيّين: بحقّ النبيّ أخبريني بما فيه. قالت: حين أراد أن يزوّجني أبي منك قال لي: زوّجتك من عليّ [على] صداق أربع مائة درهم، قلت: رضيت عليّاً، ولا أرضى بصداق أربعمائة درهم. فجاء جبرئيل، فقال: يا رسول الله، يقول الله عزّ وجل: الجنّة وما فيها صداق فاطمة، قلت: لا أرضى. قال: أيّ شيء تريدين؟ قلت: أُريد أُمّتك، لأنّك مشغول بأُمّتك. فرجع جبرئيل. ثمّ جاء بهذا الكتاب مكتوب [فيه]: شفاعة أُمّة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) صداق فاطمة (عليها السلام). فإذا كان يوم القيامة أقول: إلهي هذه قبالة شفاعة أُمّة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)».[4]

(١) نوح/ ٥-١١

(٢) نوح/ ٢٦

(٣) أي الورق.

(٤) مجمع النورين، ص ١٥٨

الأمومة والبنى التأسيسية[1]

قال تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ..... ﴾[2] إلى أن يقول ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ لا شك أن موضوع المرأة قابل لأن نتحدث فيه من حيثيات كثيرة وجوانب عدة، أما الحديث عن المرأة من حيث كونها أماً، فهو حديث عن موقعها التأسيسي في النسيج الاجتماعي والبنى التحتية لنظامه، مقابل النظرة التي ترى أن أساس البناء الاجتماعي هو الاقتصاد، وأن الطبقات الاقتصادية والوضع المالي هو الأصل في بقية النسيج الاجتماعي.[3]

نحن ندّعي أن الأم هي أصل البناء الاجتماعي وأساسه، ومن أفكار ونتاج هذا المدعى أن الأمومة هي الأرض التي تصنعها الأم وتؤسسها فتحوّل ما تحت أقدامها إما إلى جنة أو إلى جهنم حارقة وشقاء الدارين – والعياذ بالله – وهي دعوى يتفق عليها التربويون فضلاً عن الثقافات التي تزخر بها الديانات الإلهية. وما أكثر مضامين النصوص الدينية التي تؤكد ذلك، فقد جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: «يا رسول الله من أبر؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): أمك. قال: ثم من؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): أمك. قال: ثم من؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): أمك. قال: ثم من؟ قال

(١) ورقة العالمة الفاضلة في ملتقى يوم المرأة العالمي لعام ١٤٣٥هـ.

(٢) الإسراء/ ٢٣–٣٩

(٣) إشارة إلى الفلسفة المادية.

(ﷺ) : أباك »[1] . ومنها قوله (ﷺ) : « الجنة تحت أقدام الأمهات » وقوله (ﷺ) : « تحت أقدام الأمهات روضة من رياض الجنة . . » [2] ولكننا سنثبت هذه الدعوى بدليل تلفيقي من المعقول والمنقول :

قسّم الفلاسفة والمدارس العقلية الحكمة الى قسمين :

– **حكمة نظرية** : وسموها بالعلم الأعلى ، وهي معرفة ما يجب أن يُعرف أو العلم بالموجود كما هو تجنباً من الوقوع في الوهم والخيال والجهل .

– **حكمة عملية** : والتي موضوعها العمل والسلوك وصياغة التعامل وفق ما يجب أن يُعمل . وتعد الحكمة العملية هي أساس سعادة الإنسان ، وهي ما يحول بينه وبين الوقوع في الانحراف والخروج إلى سبيل الشقاء ، ومن ثم التأثرّ والتأثير على المجتمع الذي هو عبارة عن روح مركبة من مجموع هذه السلوكيات الأخلاقية .

دور الأمومة في هذه المنظومة

تحدث القرآن عن الحكمتين : النظرية والعملية . والآية التي صدّرنا بها الحديث تعتبر من أهم الآيات التي تحدثت عن جوانب الحكمة العملية ، وكونها الضمان والأساس والأرضية الصلبة التي يقوم عليها نسيج المجتمع ، الذي كلما كان قوياً وراسخاً سادت به السلامة والعدالة والأمن والاستقرار ، وانتظم الشأن الاقتصادي والسياسي وأقيمت بذلك الدولة الفاضلة .

(١) الكافي ، ج٢ ص ١٥٩

(٢) مستدرك الوسائل ، ج١٥ ص١٨٠

وتتميز الأم هنا؛ لأن عقل المرأة العمليّ أكثر فعالية من عقل الرجل – كما يرى الشيخ الجوادي الآملي[1] – ولبيان ذلك نعرض ما قاله الحكماء في هذه المسألة:

قلنا أن الحكماء يقسمون فعاليات العقل إلى: فعالية عملية وفعالية نظرية. الفعالية النظرية تتعلق بالتدقيق والتفكر في الأمور النظرية، ونفس هذا التدقيق إذا تعلق بالأمور ذات الطابع العملي كالحب والإرادة والشوق سمّي بالعقل العملي. وكثيراً ما يصل العقل نظريّاً إلى أن المصلحة في أمور معينة والمفسدة في أمور أخرى، ولكن يحجبه عن الالتزام بذلك على مستوى السلوك ضعف شقّه العمليّ، وضعف الانبعاث والحبّ والتحرك والطلب.

يقول الحكماء هنا أنه باعتبار أنّ المرأة موجود رقيق عاطفيّ سريع الميل، فلا فاصل بين وعيها لحقيقة معينة وسرعة طلبها وانبعاثها لها. أي ليس هناك حجاب – على حد تعبيرهم – بين الإدراك والتأثر، وبين العمل. وهذا مائز في الأمومة يجعلها أشد حساسية تجاه الخطأ وأسرع تحركاً لتغييره. كما أن الأم أشد حرصاً على مصلحة أبنائها بحيث تلتفت للجزئيات وصغار الأمور وتنفعل منها ولها. ولا يخفى أن عدم التهاون بالصغائر كي لا تتحول إلى كبائر هو أحد عناصر التربية الصحيحة، والوقاية من المساقط وشدة النفور منها بمجرد ظهور قرائنها؛ هو خير عاصم من الانزلاق فيها، وهذا الحرص من خصوصيات الأم. فحينما تلاحظ الأم بوادر الخطر على ابنها، فإن ذلك يدفعها لأن تتحرك بسرعة لحمايته، في الوقت الذي لا يحرك الرجل قدماً واحدة، وذلك لأن قوى التأثير والتحريك والانبعاث والحب تختلف تكويناً فيهما.

الآية التي بين أيدينا عبارة عن وصايا إلهية هي بمثابة الخريطة العملية لتحقّق الحكمة العملية، لأن الله في آخر الآية يقول: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ

(١) راجع كتاب جمال المرأة وجلالها للشيخ الجوادي الآملي، ص ١٨٩–١٩٢، دار الهادي.

الْحِكْمَةِ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾.

شرعت الآية من أعلى قمة وأول مقتضى من مقتضيات الحكمة، وهذه هي الخطوة الأولى التي إن ثبتت عليها الأقدام يبدأ بناء المدينة الفاضلة. وكما يقول الشاعر الفارسي (ابدأ التحرك من باب ليلى القلب لتكون صاحب عزم وإرادة). ثم عطف على هذا القضاء قضاء آخر[1] فقال: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وهو محطة توقفنا. وهذه هي الحلقة الثانية من الحكمة العملية.

لقد بحث البعض في علّة قرن الإحسان للوالدين بعبادة الله سبحانه، فقالوا أنّ هناك تناسب بين علتين: علّة إيجادية وهي إيجاد الله للإنسان، وعلّة معِدّة تتمثل في وجود الأبناء عبر واسطة الوالدين، ومن أجل هذا التناسب كان مقتضى ترتّب الحكمة العملية، فكان الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله مباشرة.

ولكن بالتدقيق في سائر الآيات نعلم أن الأمر أكثر عمقاً ودقّة من ذلك، وسنستعرض دليلاً آخر لسبب اقتران دور الأم بعبودية الله باستعراض مناسبةٍ هي الأهم بينهما، وهي التي تسلط الضوء على موقعية الأمومة كركيزة أساسية في البناء الاجتماعي وهي: أن التناسب بين الإحسان والأمر بشدة الارتباط بالوالدين وترتيب ذلك على عبودية الله وربوبيته هو جانب المسانخة والتشابه العجيب بين الربوبية والأمومة.

إننا مهما بحثنا في الروابط والعلاقات الاجتماعية لن نجد علاقة هي أشبه بعلاقة الخالق بالمخلوق كرابطة الأم بالأبناء، وبمقارنة سريعة نجد نقاط التشابه التالية:

(١) القضاء: الحكم المبرم الذي لا رجوع عنه.

١ – الله سبحانه غنّي عن العباد، وإنما يرزقهم حبّاً لهم، قال الإمام علي (عليه السلام): «إن الله خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم»[١]. والأم سليمة الفطرة أيّاً كانت ديانتها إنما ترعى أبناءها بباعث الحب والمودة والسعي لمصلحتهم فقط بدون دافع آخر.

٢– إن العبد يتفلّت دوماً من هذا الحب والرعاية الإلهية، وكلما توهّم الغنى طغى وسعى في قطع العلاقة «وَتَتَحَبّبُ اِلَيّ فَأَتَبَغّضُ اِلَيْكَ، وَتَتَوَدّدُ اِلَيّ فَلا اَقْبَلُ مِنْكَ»[٢]. ونفس هذه المعادلة نجدها بين الأم والأبناء، فكلما كبر الابن بدا عنده الشعور بالغنى والتفلّت حتى من تلقّي المحبة، وظهرت عنده الرغبة في الاستقلال، بينما الأم كلما كبرت ونضجت تشبثت بها خصائص الأمومة ونشبت فيها أظفار المحبة، وتولّعت فيها أحكامها.

٣– إن من شأن الربوبية المراقبة والمحاسبة والمراودة – كما يقول الحكماء – وهذا يتجلى تماماً في الأمومة، فبعد مرحلة الاحتضان تقتضي الأمومة مراقبة الأبناء لكي لا يقعوا في المفسدة، والمحاسبة حين الوقوع في الخطأ، والمراودة بعد التوبة. وتقصير الأم عن أداء هذه الوظيفة يؤدي إلى اختلال الأخلاق والفضيلة.

يجدر أن نشير هنا إلى أن التوجيه الأول الذي ذكرناه للآية يترتب عليه أمر، وهو إذا انقطعت العلاقة مع الأم انقطع النسل المادي والتناسل، ولكن بعد عرض جانب المسانخة بين الأمومة والربوبية سنجد أن قطع العلاقة مع الأم لا يعني قطع التناسل المادي فقط؛ بل يعني قطع التناسل الروحيّ والفكريّ والثقافي والمعرفيّ، وقطع أسباب الرحمة؛ لأن الأمومة أشبه بجرعة ربانية مزرّقة في النفس الإنسانية وفطرتها.

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) دعاء الافتتاح.

الأمومة وليدة تجلّي الربوبية في المرأة

الأمومة في الأنثى ليست دوراً لمرحلة معينة كالزوجية التي تتفتح في سنّ معين ثم تخبو، وليست وليدة حاجة بدنية أو ماديّة كما هي بقيّة الحاجات؛ بل هي وليدة تجلّي الربوبية بسعة مفهوم الربوبية.

ولذا لو أخذنا مفهوماً كـ(صلة الرحم) مثلا، سنجد أنه منسوب للأم وهي أصله، فكل البشرية تعود لرحم واحد، ومن هنا نعي أن أمومة المرأة مظهر لسعة رحمة الله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، فالمرأة أم لأبنائها، وأم لأبيها، وأم لمجتمعها، وكذلك لصديقاتها وزميلات العمل، ولكلّ الشرائح التي تحتكّ بها، وتحت أقدام هذه الأنثى جنّة السعادة، وبها تبنى المدينة الفاضلة، ولذا كان عقوقها من أكبر الكبائر.

ومن أصول الحياة الحكيمة التأكيد على هذا الدور، والتثقيف عليه وإعداد المجتمع ليتحول من مجتمع ذكوريّ إلى مجتمع ينسج من هذين العمودين (المرأة والرجل) جنّة عرضها السماوات والأرض ﴿وذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾.[2]

ممارسة الأمومة في ظل التحديات المعاصرة

ربما نتساءل بعد هذا، كيف تمارس المرأة اليوم أمومتها في ظلّ التحديات الكبيرة في هذا العصر، ومع هذه الهجمة الشرسة التي تتقاذف إنسان اليوم من كل الأطراف؟

للجواب عن ذلك نقول: هناك قواعد أساسية تمكّن مراعاتها الأم من تأدية

(١) الأعراف/ ١٥٦

(٢) الإسراء/ ٣٩

مسؤوليتها الإلهية وهي:

١- المراقبة: وهو ما يذكره صاحب الميزان في رسالة الولاية، وهي تبدأ في سن الطفولة. فللتربية أصول ومن أهمها البِدار، والاستفادة من خلوّ ذهن الطفل من المزاحمات. بل حتى في التربية الاجتماعية يعدّ السبْق لزراعة القيم واقياً للإنسان من الشبهات المستحكمة. فالمبادرة فرصة ذهبية، ولذلك يقول الأمير (عليه السلام) في وصية للإمام الحسن (عليه السلام) «ولقد بادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك».[1]

٢- مراعاة مناهج وأساليب التربية ومنها:

١. الدعوة القولية، والتدريب والممارسة، والتكرار والتلقين. ومما يؤسف له أنّ أغلب الأمهات يتصورن أن قولهن تكوينّي، وكأنها تقول للشيء كن فيكون! بينما يقول العلماء والمتخصصون أن التربية هي سماع الموعظة مرات ومرات ليقع التأثير.

٢. الدعوة العملية لأعلى مراتب الفضائل. إن المتأمل في سلوك الزهراء (عليها السلام) يراها عمليّاً كانت أعبد الناس، وبمرأى ومسمع من أبنائها. وهذا بخلاف النظرية التي سادت اليوم والتي تقول أنه يجب أن نطرح الدين والتدين في الأسرة بسلوك تسامحي، ونجعل للأبناء الحريّة والاختيار فيما يعتنقون لكي لا ننفّرهم من الدين، والحق أن الدين هو الدفينة المودعة في الأعماق، والذي يجب أن لا نتوقف عن الحفر داخل الروح والنفس الفطرية لاكتشافه وإثارته وتحريكه؛ لأننا كلما حفرنا أكثر ظهر لنا الدين أصفى وأجلى وأشد.

(١) نهج البلاغة.

الزهراء (عليها السلام) والمرجعية الفقهية[1]

حقيق للعاقل أن يعترف بِعيّ العقل وعجزه عن معرفة الصديقة الطاهرة (عليها السلام). وقد وجدت نفسي في هذه المقالة أسعى لنيل المُحال، وأطردُ خلف معانٍ بعيدة المدى، وأطلب ما لا يناله غوص الفطن ولا بُعد الهمم. ثم تذكرت الرواية التي تخبر أنها (عليها السلام) إنما سميت فاطمة لأن الخلق فُطموا عن معرفتها،[2] وكأن الباحث ينسى هذه الواقعية ولا يراها إلا حين يرتطم بجهله وعيّه وعجزه، وينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير.

بداية، ولكي نراعي الدقة العلمية، لا بد من الإشارة إلى ضيق العنوان الذي اقترحته اللجنة المنظمة عن المعنون، فالتعبير بفقه الزهراء غير دقيق، لأن الفقيه هو من له رأي وحكم وموقف بعد النظر في الأدلة والمنابع والأصول الشرعية، بناءً على قاعدة حجية العلم. وأما من كانت هي حجة كاملة، وليس الشرع إلا انتزاع أحكام ونتائج وأغراض مستفادة من أقوالها وأفعالها وتقريرها، فلا يصح أن يقال أن لها فقهاً وفهماً للشرع؛ لأن رتبتها حكاية التشريع وجعلِه، فهي (عليها السلام) من تشق للفقه الطريق، وتشرع للفقيه أبواب الأحكام، وتبقر للمجتهد بطون الآراء، وتفلق له نور الملكات العلمية، لا أن هناك طريقاً تتفقه وتتعلم منه.

ولكن من باب المشاكلة والتجوّز نقول أننا نتحدث عن فقه الزهراء (عليها السلام)، كما قال الله على لسان عيسى ابن مريم: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا

(١) ورقة العالمة الفاضلة في ملتقى المرأة الرابع ١٤٣٦هـ

(٢) عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: «إنّا أنزلناه في ليلة القدر» الليلة: فاطمة، والقدر: الله، فمن عرف فاطمة حقّ معرفتها فقد أدرك ليلة القدر. وإنّما سمّيت «فاطمة» لأنّ الخلق فطموا عن معرفتها». البحار، ج ٤٣ ص ٦٥

أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾[1] فكما أنه ليس لله نفس، فكذلك ليس للزهراء (عليها السلام) مدرسة فقهية، وعبقرية علمية. وهذا تماماً كما إذا قيل: فقه الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، فهذه النسبة أيضاً غير صحية، إلا أننا من باب الاحتجاج مع وجود من يدعي التخصص في علم الفقه نصحح هذه النسبة من باب الجدال.

وعليه، يجب أن نقسّم ما ورد عن الزهراء (عليها السلام) وفي حقها إلى أثار علمية وكلامية عقائدية وآثار عملية سلوكية.

١-الآثار العلمية العقائدية:

هذه الآثار نؤمن بها ونعتقد بها، ولكن أحكامها كآيات الله، فهي عبارات وإشارات ولطائف وحقائق[2] فالعبارة نفهمها، والإشارة نتابعها، واللطائف يستريح العقل بها ولها، والحقائق نستسلم لها. يقول الإمام الخميني (قدس سره) في ذلك: «إنّها ظاهرة من مرتبة الغيب الأحديّة، . . . كحال الخُلّص الأولياء عليهم سلام الله، ويُخطئ مَن يدَّعي معرفة مقامها المقدَّس من العرفاء أو الفلاسفة أو العلماء. وكيف يُمكن إماطة اللّثام عن منزلتها الرفيعة، وقد كان رسول الإسلام يتعامل معها في حال حياته معاملة الكامل المطلق»[3]

٢- آثار عملية وسلوكية:

وهذه الآثار عملية باعتبار مقام حجية الزهراء (عليها السلام) العملية، وكونها في موقع توضيح أبعاد الرسالة من جهة، وبالنظر إلى الدور والوظيفة التي مارستها (عليها السلام) من جهة أخرى. ولا شك أن هذا عنوان واسع أيضا، لأننا لو وقفنا على سيرتها القطعية، سنجد فقهاً واسعاً في كل مراحل حياتها المقدسة. كدفاعها

---

(١) المائدة/ ١١٦

(٢) جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: «كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء: على العبارة والإشارة، واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء». بحار الأنوار، ج ٧٥ ص ٢٧٨

(٣) من جواب له (قدس سره) عندما طلبت منه السيّدة فاطمة الطباطبائي زوجة المرحوم السيّد أحمد الخميني أن يكتب لها حول مقام السيّدة الزهراء (عليها السلام).

عن الرسول والرسالة في أصعب الظروف، والدفاع عن الرسالة والرسول واجب على كل مسلم ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بأنفسهم عن نفسه﴾[1] ويشمل هذا الجانب حياتها في كل جوانبها العبادية والجهادية، كما يشمل أمومتها وعلاقاتها الزوجية والاجتماعية.

وبما أن حديثنا في القسم الثاني، فإننا سنتعرض إلى عدة مسائل فقهية من خطبتها الغراء:

المسألة الأولى: مرجعية القرآن للأحكام الشرعية

ونعني بذلك تأصيل الرأي القرآني وجعله هو المرجع للأحكام الشرعية حال وجود نقولات نبوية تعارضه.

وهي قاعدة نصّ عليها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الأطهار (عليهم السلام). ولكن في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحال وجوده كان هو المرجع الوحيد للحكم وللتشريع والتنفيذ، وأول ظاهرة حدثت بعد وفاته كانت ذلك الخلاف المستحكم بين الصديقة الطاهرة (عليها السلام) والخليفة الأول على مسألة إرثها من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولو وقفنا على الأصول الفقهية التي أبطلت بها الصديقة الزهراء (عليها السلام) دعوى الخصم سنجدها لم تترك دليلاً قرآنياً ولا عقلياً ولا عقلائياً ولا عرفياً إلا وأقامته لإثبات أن الرواية التي ادّعاها الخليفة مختلقة مكذوبة ولا ترقى إلى مستوى النظر فيها.

لقد دُونت كتب كثيرة جداً للنقاش في هذا الباب، ولكننا هنا سنتعرض لبعض النتائج الفقهية التي أوردتها الصديقة الطاهرة في خطبتها

(١) التوبة/ ١٢٠

مما له دلالة على فطنتها وعظيم إحاطتها بالمعارف الفقهية.

فإنها حينما أرادت الاحتجاج على الخليفة في رد الرواية (إنا معاشر الأنبياء لا نورّث) لم تستشهد بخبر آخر معارض لهذا الخبر، أو سيرة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مخالفة ليعارض الخبرُ الخبرَ فيتساقطان؛ بل أقامت الآيات القرآنية التي تنصّ بظاهرها على معارضة ما يدّعيه الخليفة. ونحن نعلم أنه في آيات الأحكام الفقهية يُكتفى بظاهر النص ولا يُقبل تأويله. يقول الإمام الخميني وهو يقسّم الآيات القرآنية إلى آيات تقبل التأويل وآيات يكتفى فيها بالظهور وهو حجة ما مضمونه: في القرآن ضربان من الآيات أحدهما الآيات العملية التي ينبغي للجماهير أن تعمل بها ويتعين تطبيقها. والثانية الآيات العلمية التي ليست لها ذات الصفة. مادامت الأحاديث والآيات تنتمي إلى الصنف الأول فهي تتسم بالعمومية وقد جاءت من أجل التطبيق – فالقانون يجب أن تكون بنوده واضحة – فلابد أن تكون على مستوى الفهم العام من دون أن يكون منفذ فيها للتأويل. وقد قالت (عليها السلام): «أَفَعَلى عَمدٍ تَرَكْتُم كِتَابَ اللهِ، وَنَبَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهورِكُم، إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ وقَالَ فِيمَا اقْتَصّ من خَبَرِ يَحْيَي بن زَكَرِيّا عليهما السلام إذ قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ وقال: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ﴾ وقال: ﴿يُوصِيكُمْ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُم لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَينِ﴾ وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[1] « هذه الكيفية في الاستدلال تحيي في أذهان الصحابة والحضور ما كان يؤكد عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من أن ما خالف كتاب الله فهو زخرف.[2]

وقد أكّدت الزهراء (عليها السلام) على هذا الأصل. ولكن قبل ذلك تجدر الإشارة إلى

---

(١) الخطبة الفدكية.

(٢) عن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف» الكافي، ج ١ ص ٦٩

نكتة لغوية أيضا، وهي أن نفس كلمة الحكم تستبطن وجود قضية سابقة عن صدور الحكم، وهي ما نسميه بفلسفة الأحكام من المصالح والمفاسد، هذه الملاكات تكون موجودة في المجعول (متعلق الحكم) وقد تكون في نفس الجعل. ومما لا شك فيه أن ارتباط الأحكام الشرعية بالمصالح والمفاسد وبيان ذلك للناس يزيد في محركيتهم للالتزام بالحكم الشرعي، سواء قلنا أن ارتباط الحكم الشرعي بملاكه كارتباط العلة التامة بالمعلول، أو قلنا أنه بمنزلة المقتضي لتحقق المعلول.

لقد عرضت الزهراء (ﷺ) في خطبتها مناشئ الأحكام وفلسفتها. فقالت فيما يتعلق بأول الواجبات الشرعية وهو عقيدة الإيمان بالله عز وجل: «جَعَلَ اللهُ الإِيمَانَ تَطهِيراً من الشِّركِ» ولهذه العبارة معان عميقة عدة:

قال البعض بأن الإيمان بالله هو إضافة كمال علمي وأخلاقي ورفع لمستوى الإنسان، وذلك الإيمان يطهر القلب، كما أن كلمة التوحيد تطهر البدن.

ولكن ربما هناك معنى آخر أكثر تناسباً وكلمة التطهير التي استخدمتها (ﷺ)، وهو أن الإيمان ليس دخول حقيقة جديدة في القلب، وإنما هو إعادة القلب إلى وضعه السليم، ورفع الأثقال التي عرضت عليه، تماماً كما يستخرج المعدن بإزالة التراب الجاثم على نوره. فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة، أي أن ذواتهم معادن. وكما أن المعدن موجود في الأعماق، ويحتاج إلى رفع الغبار عنه؛ فكذلك الناس. وليس في المسألة جبر بل هذا إشارة إلى حقيقتهم. وبالإيمان يبرق هذا المعدن.

كان هذا ما أوردته الزهراء (ﷺ) في الواجبات والمحرمات الأوليّة. أما فيما يتعلق بالأخلاق فقالت: «وَالصَّلاةَ تَنْزِيهاً لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ، والزَّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَمَاءً في الرِّزْق» باعتبار أن الطبقية الاجتماعية توهم الفقير بالدونية

والغنيّ بالعلوّ، لذا كانت الزكاة إزالة لهذا التوهّم من النفس. وإنما وضعت الزكاة لمعالجة التوهمات الباطلة من النفس ووضع معايير علمية وحقيقية. وهذه هي تزكية النفس.

أما فيما يتعلق بالعمل وببناء المجتمع وقوته فقالت: «والحَجَّ تَشْييداً لِلدّينِ» لأن الحج ليس صرف عبادة روحية، بل هو حاكٍ عن البعد الاجتماعي للدين، فكأن الدين بناء وطوبه ولبناته وعمارته هو حال المسلمين أنفسهم، حركتهم، تجمعهم، مناسكهم... وبالحج يعمر هذا البناء وتظهر قوة هندسته وعظمته وارتفاع شأنه.

المسألة الثانية: حيثية تقسيم الحكم الفقهي

يقسّم الحكم الفقهي بلحاظات عدّة إلى: وضعي وتكليفي، وإلى واجب ومستحب ومحرم ومكروه ومباح. أو واجب ومحرم ومباح بمعنى أعم. وفي تقسيم آخر يعدّ تناسب سهولة الأحكام الفقهية مع يسر وسماحة واعتدال الدين الإسلامي هو حيثية أخرى في التقسيم، فتنقسم الأحكام حينها إلى واجبات (أوامر وزواجر)، ومباحات ورخص ومستحبات.

وللصدّيقة الزهراء (عليها السلام) قدم السبق في هذا التحييث والتقسيم المهم جدا. ولتوضيح ذلك يجب أن نقول إن أهم خطر يمكن أن يحارب به الدين الإسلامي هو الإفراطية والتفريطية في التعامل مع الأحكام، فانّ عدم الاعتدال في جعل الأحكام يوجِد فئة هالِكة ومهلِكة تهدد أصل وجود كيان ديني. لأن المقدار الكمالي النهائي أو الحدّ التام من الشرع لا يمكن أن يلتزم به جميع الناس على حدّ سواء، والنظرة الإطلاقية للمستحبات تعني إسقاط الأكثر عن الانتماء للدين، ولذا كان هناك حدّ نصاب من الشرع هو من السهولة بحيث يمكن

للكلّ الالتزام به بلا استثناء، وهو الذي يدخل الإنسان في ضمن المجتمع الديني، ويحسب به عضواً مهما، وتترتب له حقوق كثيرة مقابل هذا الالتزام.

نعم، هناك حدود عالية ومحببة ويحث عليها الدين، ولكنها تبقى في عداد الفضائل ولا تتحول إلى الزامات، لأن تحولها إلى إلزامات يجعلها أكبر خطر يهدد الإسلام.

وهناك أيضاً دائرة الرخَص وإطلاق العنان والحرية للمكلّف، وبها يتعاطى الإنسان بمقتضى رغباته وميولاته مالم تصطدم مع العزائم الشرعية، ويجب أن تبقى هذه الدائرة مباحة للكل فإن الله يحب أن تؤتى رخصه.[1] وفي هذا قالت (عليها السلام) مقسّمة الخطابات القرآنية بلحاظ الواجب والمستحب والمباح: «مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتّباعُهُ، مُؤَدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ. بِهِ تُنالُ حُجَجُ اللهِ المُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ، وَمَحارِمُهُ المُحَذَّرَةُ، وَبَيِّناتُهُ الجالِيَةُ، وَبَراهِينُهُ الكافِيَةُ، وَفَضائِلُهُ المَنْدوبَةُ، وَرُخَصُهُ المَوْهُوبَةُ، وَشَرايِعُهُ المَكْتُوبَةُ».[2]

المسألة الثالثة: التأكيد على موضوعية الفتوى

ونعني به وجوب الإحاطة بجزئيات المسائل والأحكام الشرعية والقراءة المتكاملة لأبعادها. قالت (عليها السلام): «أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمّي؟»[3] فلا ينبغي إصدار الأحكام ونسبتها للشارع إلا بعد استيفاء مواضيعها، ولذا لا بد من جمع الآيات والنصوص جمعاً عرفيا، فيحدد العام والخاص، والمطلق والمقيد، والحاكم والمحكوم، والوارد والمورود عليه، وتحرز المواضيع بكل أبعادها، فما من عام إلا وقد خُص. وكم عندنا من

(١) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» كنز العمال، ج ٣ ص ٣٩

(٢) الخطبة الفدكية.

(٣) الخطبة الفدكية.

مطلقات قيّدت، فبين الأحكام هام وأهم، فعلى الفقيه الفطن أن يعالج الوقائع بتقديم المهم على الأهم وتحديد المقاصد الأساسية من الأحكام والأوامر والزواجر والنواهي كما فعلت (ﷺ)، إذ خرجت للمطالبة باتخاذ موقف معلن وصريح بوجه الحاكم، وعينت للمسلمين الوظيفة، وقدّمت أهمية الموضوع بالتحرك للمصلحة العامة. وإن لم تكن الشرائط العامة تؤمّنها من الضرر، أو تكون هناك مؤشرات مرحلية لبلوغ الأثر، فقد قالت (ﷺ): «أَلا وَقَدْ قُلْتُ ما قُلتُ عَلى مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِالخذْلَةِ الّتي خامَرَتْكُمْ، وَالْغَدْرَةِ الَّتِي اسْتَشْعَرَتْها قُلوُبُكُمْ، وَلكِنَّها فَيضَةُ النَّفْسِ، وَبَثَّةُ الصَّدرِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَتَقدِمَةُ الْحُجَّةِ»[1] وهذا بحث موسع جداً وهنا تظهر مهارة الفقيه وحذاقته وفطنته وجودة فهمه.

كانت تلك مسائل تأسيسية في علم الفقه، تعدّ الزهراء (ﷺ) أول من قررها ثم تبعها على ذلك أبناؤها المعصومين (ﷺ). فأي قيمة لهذه المرأة التي فرضت على كل عالم وفقيه أن يخضع لعلمها ويقرّ بفضلها ويتأسى بها!

خرج من الناحية الشريفة عن الإمام المهدي (ﷺ) أنه قال: «وفي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي أسوة حسنة..»[2] والتأسي إنما يكون بالموقف العملي.

(١) الخطبة الفدكية.

(٢) موسوعة توقيعات الإمام المهدي (عليه السلام)، محمد تقي أكبر نجاد، ص ١٠

الزهراء والمرجعية الحقوقية والاقتصادية[1]

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ونورهم﴾[2]

كان ولايزال الحديث عن الصديقة الطاهرة مصدراً ومرجعاً لا ينضب ولا يجف ولا يأزر.

تعدّ الزهراء (عليها السلام) من أبرز مصاديق الآية التي افتتحنا بها، فهي الصدّيقة الشهيدة كما جاء في زيارتها (السلام عليك أيّتها الصدّيقة الشهيدة)[3] وهي بهذين الوصفين تمثل مرجعيّة رئيسية للأمة وللإنسانية كافة، ولها بذلك أجرها ونورها ونورانيتها.

والنور – كما نعلم – منكشف بنفسه وكاشف لغيره، وهو عين ما نريده من معنى المرجعية، لأن معنى الصديقة الشهيدة هنا يعني فيما يعني أن تمارس الزهراء (عليها السلام) أدواراً ثلاثة – كما أشار إلى ذلك الشهيد الصدر (قدس سره) – إذ يرى أن الشهادة هي معرفة عالية بالأهداف الإلهيّة التي يريدها الله تعالى لمسيرة البشريّة، وهي معرفة وإشراف على واقع الأمّة يقتضي التوجيه الصحيح والسعي لمنع الانحراف.

هذه الأدوار هي:

الأوّل: استيعاب الرسالة السماويّة والحفاظ عليها.

الثاني: الإشراف على ممارسة الناس لدورهم في خلافة الله، وإعطاء التوجيه

(١) ورقة العالمة الفاضلة في الملتقى الخامس للمرأة ١٤٣٧هـ والتي كانت بعنوان (الزهراء نموذج المطالبة بالحقوق والإرشاد إلى موارد الصرف).

(٢) الحديد/ ١٩

(٣) بحار الأنوار، ج ٩٧

الرساليّ المناسب لهم.

الثالث: التدخّل لمقاومة الانحراف واتّخاذ كلّ التدابير الممكنة من أجل سلامة المسيرة.

وجدير بالمرأة المؤمنة الواعية أن تتعلم كيفية الرجوع إلى هذا المصدر الثرّ على نحو قوة النظر فيه، وفهم أبعاده، واستخراج الحلول النافعة لكلّ ما تحتاجه في حياتها خصوصاً وهي تواجه اليوم البدع والتحديات والشبهات والخطط الشيطانية لحرفها عن مركز السيادة والاقتدار وحسن التدبير.

سأتحدث وفق عنوان الملتقى في محورين:

١–الزهراء نموذج للمطالبة بالحقوق

٢–الزهراء نموذج للإرشاد في موارد الصرف

المحور الأول: الزهراء نموذج للمطالبة بالحقوق

مما لا شبهة فيه أن أحد أهم شُعب الفقه الإسلامي هو نظام الحقوق. فإن الدين كما يعطي نظاماً لحياة الإنسان العبادية وعلاقته بالله، فهو أيضاً نظام اجتماعي يضمن للإنسان حقوقه المالية والعلمية والاجتماعية، وهذا ما يجعله ديناً قابلاً للانبساط على حياة الإنسان مستوعباً جميع أبعاده الوجودية، إذ تطابق أحكامه حاجات الإنسان بموضوعية وواقعية.

وحين نجعل الزهراء (عليها السلام) نموذجاً للمطالبة بالحقوق، فلأنه ربما لم يعهد في المجتمع الإنساني – على علمنا – أن امرأة استطاعت أن تضفي القدسية والنزاهة والربانية على القيام بهذا الدور كالصديقة الزهراء (عليها السلام). فإن خطبتها الفدكيّة كانت نموذجاً متميزاً لقوة الحجة والبرهان للمطالبة بحقوقها. خصوصاً أنها في مجتمع لا يرى للمرأة الحق في معرفه حقوقها، بل قد يضفي القدسية

على منهج الاستكانة والضعف والاستسلام لرأي الجماعة والكثرة، خصوصاً إذا كان الحاكم والسلطان طرفاً من أطراف القضية والطرف المقابل امرأة، فإن المعادلة هنا تكون خاسرة غالباً بسبب التفاوت الكبير بين الطرفين.

وإذا تأملنا في واقع المجتمعات عبر التاريخ وجدنا أن معادلة كهذه تكون غالباً غير متوازنة. إلا أننا إذا حللنا حركة الصديقة الزهراء (عليها السلام) سنلحظ أن لحركتها عنصرين أساسيين:

أولاً: قلب الصورة من القاع إلى القمة:

وذلك أنها حولت نقاط الضعف في هذه المعادلة إلى نقاط قوة والعكس صحيح. فقد قلبت موقع الحاكم إلى موقع المحكوم، وحولته من كونه أعلى سلطة، إلى كونه مداناً ومتهماً بأتمّ برهان وهو كلام الله فقالت (عليها السلام): «يَا ابْنَ أبي قُحافَةَ! أفي كِتابِ اللّهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، ولا أرِثَ أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً! أفَعَلى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللّهِ، وَنَبَذْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ إذْ يَقُولُ: ﴿وَوَرِثَ سليمان دَاوُودَ﴾[1]، وَقالَ فيمَا اقتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيّا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[2]، وقال: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى* بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ﴾[3]، أفَخَصَّكُمُ اللّهُ بِآيَةٍ أخْرَجَ مِنْها أبي؟ أمْ هَلْ تَقُولونَ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ لا يَتَوارَثَانِ، أوَ لَسْتُ أنَا وَأبي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟! أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمّي؟ فَدُونَكَها مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً، تَلْقاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللّهُ، وَالزَّعِيمُ

(١) النمل/ ١٦
(٢) مريم/ ٥-٦
(٣) الأنفال/ ٧٥

مُحَمَّد، وَالْمَوْعِد الْقِيامَةُ».[1]

ثانياً: تحميل الناس المسؤولية:

فقد بدّلت موقعهم من موقع المتفرج أو اللائم إلى موقع من يفوّت الفرصة على الظالم بتحليل الواقع والتبصّر فيه، واتخاذ الدور والموقف، فقالت: «مَعاشِرَ النّاسِ المُسْرِعَةِ إلى قِيلِ الباطِلِ، المُغْضِيَةِ عَلى الفِعْلِ القَبيحِ الخاسِرِ ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَمْ عَلى قُلوبٍ أَقْفالُها﴾[2] كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلوبِكُمْ ما أَسَأْتُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ، فَأَخَذَ بِسَمْعِكُمْ وَأَبْصارِكُمْ، وَلَبِئْسَ ما تَأَوَّلْتُمْ، وَساءَ ما أَشَرْتُمْ، وشَرّ ما مِنْهُ اعتَضْتُمْ، لَتَجِدَنّ وَاللهِ مَحْمِلَهُ ثَقيلاً، وَغِبّهُ وَبيلاً إذا كُشِفَ لَكُمُ الغِطاءُ، وَبانَ ما وَراءَهُ الضَر»

[3]هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى كثيرة، ولمن أراد تحليل نهجها (عليها السلام) في المطالبة بالحقوق، أن يراجع المطولات من الشروح والتحقيقات.

المحور الثاني: الزهراء نموذج للإرشاد في موارد الصرف

الأمر الآخر الذي نريد طرحه والمتعلق بموضوع ملتقانا[4]، هو أن الزهراء (عليها السلام) نموذج للإرشاد في موارد الصرف.

قد يتبادر سؤال حول مطالبة الزهراء (عليها السلام) بفدك مفاده: لماذا تريد الزهراء (عليها السلام) استرجاع حقوقها المالية وهي الزاهدة المنقطعة القديسة البتول العابدة؟! ألا يتنافى هذا الإصرار في المطالبة بالحقوق المالية بالذات مع هذه الصفات؟!!

(١) بحار الأنوار، ج ٢٩

(٢) محمد/ ٢٤

(٣) بحار الأنوار.

(٤) كان عنوان ملتقى المرأة لذلك العام: (الأسرة والواقع الاقتصادي من منظور إسلامي).

قيلت في جواب ذلك مبررات كثيرة جدا، وهي حقيقية وواقعية. ولكننا سنورد إجابة تتناسب وموضوع هذا الملتقى:

ينقل عن الزهراء (عليها السلام) هذا الخبر الذي يحدد لنا قيمة وموقع ودور الإمكانات المادية من دنيانا، فقد روي عنها (عليها السلام) قولها: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: تلاوة كتاب الله والنظر في وجه رسول الله والإنفاق في سبيل الله»[1]. وبقراءة عرفانية لهذا الكلام نعلم أن هذه الأمور الثلاثة تعود إلى وجه واحد، وغايتها واحدة هي (النظر إلى وجه الله) فالقرآن تجلي الله في كلمات، والنظر إلى وجه النبي – وهو الوجيه عند الله – أيضاً كذلك، وأما فيما يخص الإنفاق المالي فالقرآن ينص على أن الإنفاق الأسري في بيت فاطمة (عليها السلام) ليس إلا إزاحة التعلقات المادية وتقشير وجه الدنيا، وطرد حب العاجلة للنظر إلى وجه الله ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً﴾[2]، ففي النظام الاقتصادي العادل في الإسلام، لا ينفك الواقع التطبيقي لهذا النظام عن الخصائص الروحية والأخلاقية، لأنها هي التربة التي يمكن أن يُزرع فيها هذا النظام. يقول الشهيد الصدر في كتاب اقتصادنا: «والاقتصاد الإسلامي مترابط في خطوطه وتفاصيله، وهو بدوره جزء من صيغة عامة للحياة، وهذه الصيغة لها أرضية خاصة بها. وتتكون التربة أو الأرضية للمجتمع الإسلامي، ومذهبه الاجتماعي من العناصر التالية:

أولاً: العقيدة، وهي القاعدة المركزية في التفكير الإسلامي، التي تحدد نظرة المسلم الرئيسية إلى الكون بصورة عامة.

وثانياً: المفاهيم التي تعكس وجهة نظر الإسلام في تفسير الأشياء، على ضوء النظرة العامة التي تبلورها العقيدة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ٩١

(٢) الإنسان/ ١٩

وثالثاً: العواطف والأحاسيس التي يتبنى الإسلام بثها وتنميتها، إلى صف تلك المفاهيم، لأن المفهوم بصفته فكرة إسلامية عن واقع معين يفجر في نفس المسلم شعوراً خاصاً تجاه ذلك الواقع، ويحدد اتجاهه العاطفي نحوه.

لا نستطيع في عرضنا هذا، أن نبرز جميع أوجه الارتباط في الاقتصاد الإسلامي، وأوجه التفاعل بينه وبين سائر ما يتصل به من خصائص وعناصر إسلامية أخرى، وإنما نقتصر على نماذج من ذلك كما يلي:

١. ارتباط الاقتصاد بالعقيدة، التي هي مصدر التموين الروحي للمذهب، فإن العقيدة تدفع المسلم إلى التكيف وفقاً للمذهب، بوصفه نابعاً من تلك العقيدة، وتضفي على المذهب طابعاً إيمانياً وقيمة ذاتية، بقطع النظر عن نوعية النتائج الموضوعية التي يسجلها في مجال التطبيق العملي، وتخلق في نفس المسلم شعوراً بالاطمئنان النفسي في ظل المذهب، باعتباره منبثقاً عن تلك العقيدة التي يدين بها.

٢. ارتباط الاقتصاد الإسلامي بمفاهيم الإسلام عن الكون والحياة، وطريقته الخاصة في تفسير الأشياء، كالمفهوم الإسلامي عن الملكية الخاصة وعن الربح. فالإسلام يرى أن الملكية حق رعاية يتضمن المسؤولية، وليس سلطاناً مطلقاً، كما يعطي للربح مفهوماً أرحب وأوسع مما يعنيه في الحساب المادي الخالص، فيدخل في نطاق الربح بمدلوله الإسلامي كثير من النشاطات التي تعتبر خسارة بمنظار آخر غير إسلامي.

٣. ارتباط الاقتصاد الإسلامي بما يبثه الإسلام في البيئة الإسلامية من عواطف وأحاسيس، قائمة على أساس مفاهيمه الخاصة، كعاطفة الأخوة العامة، التي تفجر في قلب كل مسلم ينبوعاً من الحب للآخرين، والمشاركة لهم في آلامهم

وأفراحهم، وإنفاق الثروة على المحتاج بما هو محتاج لا باستحقاقه للنفقة»[1]

إذن لا ينفك النظام الاقتصادي في الإسلام عن أرضية تناسبه وتضمن نماءه بلا استغلال، أو تحويل الثروات وموارد أرزاق الناس إلى عنصر إذلال وتحقير وسلب كرامة.

موقع المكنة العقلية في الاقتصاد الإسلامي

من أهم عناصر استقامة الاقتصاد في الإسلام:

١- إعطاء الثروة لمستحقها

٢- تحديد موارد صرفها

ولا شك أن تحقيق هذين العنصرين لا يكون إلا بقدرة عقلية، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾[2] ويتضح في الآية ربطها بين المكنة الاقتصادية والمكنة العقلية، حيث اعتبرت الأموال مثل العمود الفقري الذي يستقيم باستقامته بدن المجتمع، وأنه إذا وقع في أيدي السفهاء عديمي التدبير فسوف تتفكك حلقات المجتمع ثم تنفصم عراه.

وسوف أتحدث عن هذين العنصرين بعد بيان هذه المقدمة التاريخية حول التحولات التي مرّ بها وضع المرأة الاقتصادي:

حينما كان الإنسان يعيش على الكسب المادي الذي يعتمد على قوّته

(١) رائد الاقتصاد الإسلامي الحديث: الشهيد السيد محمد باقر الصدر وكتابه: (اقتصادنا) أنموذجاً لوحدة الفكر الاقتصادي عند المسلمين/ مقال للشيخ علاء الدين الزعتري.

(٢) المائدة/ ٥

البدنية من قطع الصخور وحملها، وحفر الآبار، وجبّ الجبال، ورعاية المواشي وما شابه، لم يُعهد في هذا التاريخ حق اقتصادي يذكر للمرأة، بل كانت المرأة حينها تمثل جزءاً من حقوق الرجل المعيشية.

ثم حين أصبح كسب الإنسان من الأرض وإنمائها وزراعتها، أصبح للمرأة حقّ من الثروة الاقتصادية باعتبارها شريكاً للرجل في هذا المجال، إذ يقوم الرجل باستخراج المواد الأولية للإنماء وذلك لقوته البدنية والجسدية، بينما تمارس المرأة الأعمال التي تتناسب وبنيتها الجسدية.

ومع تطوّر الحركة البشرية لم تقتصر منابع الثروة الاقتصادية على الموارد المادية، بل أضيفت مصادر علمية ومعرفية وإداريّة وهنا أصبح للمرأة نصيبها كما الرجل تماما.

وقد ساوى الإسلام بين المرأة والرجل في هذا المجال، فإن الحقوق العلمية في الإسلام تكون من حق المكتشف والمخترع والمؤلف سواء كان رجلا أو امرأة، إذ لا يجوز في القانون الإسلامي سرقة العلم. جاء في استفتاء للسيد السيستاني:

«السؤال: ما هو المقدار الذي أمضاه سماحة آية الله العظمي السيد السيستاني من قانون حقوق الطبع و النشر وفي أي البلدان؟ وكان الجواب: سماحة السيد لا يسمح بمخالفة القوانين المذكورة المتبعة في البلاد الإسلامية»[1] هذا وقد تسالم العقلاء على أن الموقع المالي وما يترتب عليه من آثار هو للأعلم والأقدر على التدبير، لذا فإننا نجد أن أغلب الأثرياء اليوم هم المفكرون والمخترعون والمكتشفون والمبدعون. ونفس هذا القانون العقلائي جرى على الزهراء وأبنائها (عليها السلام)، فبما أن الصديقة الزهراء (عليها السلام) تتقدم الأمة عقلاً وفطنة وعلماً وعملاً وحصافة، كان لها ولأبنائها خمس الثروة المالية المودعة على وجه الأرض.

ولعله من أجل هذا التقدم المعرفي – والذي يعتمد على مرجعية العلم –

(١) منهاج الصالحين للسيد علي السيستاني دام ظله.

منحها النبي (ﷺ) نحلة كبيرة من مصدر الثروة في الدولة الإسلامية، فالمجتمعات المتحضرة تعتبر للنتاج العقلي والعلمي والمعرفي قيمة عظمى. وترى أن للشخصية الحقوقية الأولوية في التصرف بالمال ومنابع الثروة لما فيه مصلحة المجتمع. من هنا فإن الخمس من الشؤون الحقوقية لا الحقيقية للزهراء (عليها السلام) وأبنائها، فالأخيرة لا تقدّر بثمن. ولأن هذا حق مالي، والحقوق تؤخذ ولا تعطى، وإذا سلبت وجب المطالبة بها، فقد طالبت الزهراء (عليها السلام) بحقها ممارِسة دوراً عظيماً لإعادة إرساء عناصر الاقتصاد الإسلامي، وسعت لاستعادة هذا المصدر الاقتصادي الأساسي، وطالبت بهذا الحق لكي لا تعود الأمة إلى جاهليتها وبداوتها.

ويمكن القول أن حركة الزهراء (عليها السلام) كانت تعيد أهم دعائم الاقتصاد الإسلامي في بعده الإلهي الأصيل، فطالبت بحقها لأن الثروة في الإسلام لابد أن تعطى لمستحقها العاقل الذي يتمكن من تحديد موارد صرفها.

هذه القاعدة التي تقضي بإعطاء الثروة لمستحقها العاقل، والتي تبدو أخلاقية هي في النظام الاقتصادي الإسلامي ذات ارتباط وثيق بعدالة الإدارة المالية كارتباط الروح بالجسد.

من هنا ألا يحق للمرأة التي تملك الاقتدار والمكنة، والمهارة، والعاطفة، والمحبة، والإحساس بالمعوز والفقير، والرأفة بالمجتمع، والتي يضربها القرآن مثلاً في تحويل الامكانيات المادية والمال والحنطة والشعير والخبز وسائر ما هو تحت تصرفها وتصرف أبنائها وزوجها إلى مراقٍ ومعارج ترى فيها وجه الله... ألا يحق لهذه المرأة أن تضع يدها على إمكانيات واقتصاد العالم وتديره وتدبره وتمنهجه وتحوله إلى سبيل لاحبٍ وطريق مهيع للوصول إلى الغاية المثلى، وأن تقلب الاقتصاد الاجتماعي من عنصر للتكاثر إلى نهر من الكوثر؟

إن مشكلة الرأسمالية والنظام الحاكم اليوم هي مشكلة أخلاقية وسلوكية في الأصل، وإن كنّا لا نستطيع معالجة المشكلة الاقتصادية العالمية التي أوجدها هذا النظام، إلا أننا نستطيع معالجة مشاكلنا الاجتماعية الداخلية باعتماد هذه العناصر الأساسية، والدعوة لها، والتثقيف عليها، وترويجها اجتماعياً في محافلنا ومنتدياتنا ومراسمنا.

المرأة والحصانة الاجتماعية – الزهراء نموذجا[1]

مقدمة:

أبارك للحضور ميلاد الصديقة الطاهرة ويوم المرأة العالمي، وكذلك ميلاد ابنها بالحق الذي بعثه الله على رأس هذا القرن ليكون هذا الميلاد بمثابة الدورة الجديدة لانبثاق واقع جديد له مزاياه وخصائصه، وله متطلباته أيضا.

وإذا كانت السنن التاريخية الإلهية تؤكد أن لكل جيل وفي كل قرن متغيرات تعكس بظلالها على حركة الفرد والمجتمع، فلا شك أن هناك في مقابل هذه التغيرات الحياتية خطاب ديني وإلهي يستوعبها.

يؤكد الشهيد الصدر في كل إنجازاته العلمية، أن الإسلام ليس دوره أن يدافع عن مفاهيمه، أو يستجيب للتحديات فقط، بل هو يملك مشروع حياة ومجتمع، ويدعو إلى ملاحقة مستجدات الوضع البشري من أجل التنظير لها وإعطائها الصيغة الإسلامية الصحيحة في سياق الكل الديني، بل هو يقف في مقدمة المسيرة ويجرها إلى الأمام.

وهذه النظرة بطبيعة الحال لو كانت هي المحرك في النشاط الفكري والإسلامي، فإنها ستحدث تحولات حقيقية في البناء الاجتماعي والإنساني. وهي تبدو كالمسلّمة بعد إيماننا بخاتمية وإلهية الدين الإسلامي ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2]

(١) ورقة العالمة الفاضلة في ملتقى المرأة السادس ١٤٣٨هـ.

(٢) آل عمران/ ٨٥

وإذا أردنا الإشارة إلى أهم عنصرين لهما الدخالة في ضرورة تقديم مكوّن متكامل ومنظومة منطقية تستوعب كل المفردات الدينية فيمكننا أن ندعي أنهما:

١- المد الإسلامي الذي فرض نفسه كبديل واقعي ناشط ومتقدم على النماذج البشرية الأخرى فلسفياً وميدانيا.

٢- الثورة العلمية الواسعة والشاملة التي حولت العالم بأسره إلى قرية صغيرة مشتركة في المصالح والمفاسد، وحددت مركزية واحدة لإدارة تلك القرية، وأخضعت العالم لذلك المركز. مما وضعنا كإسلاميين تحت مسئولية جادّة لعرض عقائدنا ضمن شبكة متكاملة لكل المفاهيم بما يتناسب ومشروعنا الإسلامي الناهض من جهة؛ وتحديد موقعنا المستقل عن هذه المركزية الضاغطة بثقلها وإمكانياتها وتحدياتها المتسارعة من جهة ثانية.

ومن هنا فلا تُختصر وظيفتنا العلمية اليوم في الإجابة عن الإشكالات حول الحجاب أو حقوق المرأة فقط، وليست وظيفتنا العملية منحصرة في الترويج للدين وإقامة محافل التكليف للفتيات وتوعيتهن على حقوق المرأة في الإسلام وحسب؛ بل يصح أن نقول أن موضوع المرأة ومكانتها ودورها يجب أن يكون جزءاً من كل، وعلينا أن نوظف إمكانياتنا لأجله ليصح أن ندّعي أمام العالم كله أن الدين عند الله الإسلام، وأعني بذلك أن ننقح في مرتبة سابقة علاقة العقل بالدين، والدين بالعلم، والحياة بالدين، وحاجة الإنسان إلى الدين والعلم والعقل، إلى غيرها من أمهات المسائل الكلامية.

انطلاقاً من هذه المقدمة أطرح ورقتي تحت عنوان: دور المرأة في تحقيق الحصانة الاجتماعية - الزهراء نموذجا.

واضح من العنوان أنني سأتناول العنصر الثاني الذي عبرّتُ عنه بتنشيط وإبراز دور المرأة المسلمة في الحفاظ على المشروع الإسلامي الأصيل، وتنقيته من الحياة اللادينية التي تتحكم في كل أمورنا وتكاد تسيطر على حياتنا. فالوظيفة عملية بالدرجة الأولى، ولكنها تعتمد على نظرية متكاملة ومفروغ من قبولها مسبقا، فالتحصين ليس كالتعليم والبرهنة وإقامة الدليل على شيء ما أو تعريفه بالمعنى الإسمي.

التحصين دورٌ نفسي وروحي وعملي، وهو لا يتحقق بإقامة البرهان والأدلة عليه فحسب، بل يحتاج إلى قدوة. فأنت يمكن أن تتعلم الرياضيات ولم تر رياضياً في حياتك، وكذلك الطب والكيمياء، وكل العلوم النظرية. أما الحصانة فهي أمر مختلف، فعلاوة على حاجة الإنسان إلى تعلم إدارة الأمور وتحديد المساحات المطلوب منه مراعاتها وصيانتها فيه، فهو يحتاج إلى القدوة العملية أيضاً ليتأسى بها.

يجدر القول أن الدراسات في علم الاجتماع الإنساني تشير إلى أن الحاجة إلى القدوة ليست أمراً طارئاً على الحركة البشرية، لأنها هي النموذج الذي تُستلهم منه القيم والمبادئ والأهداف، وأن تأثير النموذج الملهِم أشد عمقاً من التلقين الفكري، لأن النموذج يلامس بعداً فطرياً في الإنسان وهو انجذابه للأكمل.

معنى الحصانة الاجتماعية

الحصانة الاجتماعية تعني: الممانعة لمواجهة الضد، وهي تحتاج إلى شجاعة واقتدار نفسي على إزالة الموانع وحذف المضار ودفعها باليد واللسان والقلب

وقوة الجوارح. نقول في دعاء كميل «قوّ على خدمتك جوارحي واشدد على العزيمة جوانحي». وهذه الصفات لا تؤخذ من معلّم فقط؛ بل من سابقين كانوا قد خاضوا التجربة وخرجوا منها ظافرين منتصرين.

وكما أن الدور العلمي يحتاج إلى قوى عقلية تطرد الوهم والخيال، يحتاج الدور العملي إلى طرد الشهوات والتواني وبلادة الحس وضعف الجوارح، وهذا يتوقف على وجود نموذج خارجي مؤثر، وهو متحقق بشكل واضح لا يشك فيه أحد في صاحبة هذا اليوم الصديقة الطاهرة (عليها السلام)، فقد جاء عن ابن شهر آشوب في مناقبه أن من أسمائها الحَصان، وهي ميزة للمرأة المؤمنة. ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «... ألا أخبركم بخير نسائكم؟ قالوا بلى يا رسول الله فأخبرنا فقال: إن من خير نسائكم الولود الودود، والستيرة العفيفة، العزيزة في أهلها، الذليلة مع بعلها، المتبرجة مع زوجها، الحَصان مع غيره ...»[1]

خصوصية المرأة في التحصين الاجتماعي

هناك خصوصية للمرأة الأنثى تجعلها أكثر اقتداراً على اكتساب وممارسة التحصين الاجتماعي، والنصوص الدينية، والتجربة العملية، والمعرفة الفيسيولوجية، والأدلة الفلسفية كلها تشير إلى مهارة خاصة عند المرأة بحيث تكون أسوة عملية للرجال والنساء في هذا المجال.

في القرآن لاحظوا قول الله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[2]، فمع أن القرآن الكريم يذكر مريم بنت عمران بفضائل عبادية كثيرة وبأنها كانت محدثة، وأن ابنها آية للعالمين؛ لكنه حين يجعلها مثلاً للذين آمنوا يبرز خصوصية (الحصانة) إذ يقول: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي

(١) تذكرة الفقهاء للعلامة الحلي، ص ٥٦٩

(٢) التحريم/ ٢٨

أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾

أما في الروايات فقد ورد في شأن كل أم أن الملائكة تنفخ في بطنها الروح التي هي من أمر الله حين بلوغ جنينها الشهر الرابع.[1] هذا النفخ الإلهي هو في واقعه تحصين بدني وروحي ونفسي ليس من جهة الرجل بلا شك.

أما في الفلسفة فيقول ابن سينا أن المرأة مادة والرجل صورة، والمادة فيها قوة تفقدها الصورة.

وأما في التجربة فقد ثبت أن الأم مع تحملها لآلام الحمل والولادة وأعباء التربية، فهي تمارس كل هذه الأدوار بعفّة وتغافل عن أتعابها، وتزيل كل ما يمنعها عن ممارسة هذ الأدوار.

البعد الفقهي في الحصانة

ونحن وإن قلنا أن الحصانة من المرأة هي الميزة الأكمل؛ إلا أنها في المجال الفقهي تشكّل الدور الأصعب والأكثر تعقيدا، لأن مقتضى الحصانة ألا تنشغل المرأة بغير تحصيل العلوم بأصول المعارف والعلوم الفرعية الدينية.

يقول العلامة الطباطبائي (قدس سره): «والمتحصل من جميع ذلك: أنها لا يجب عليها في جانب العلم إلا العلم بأصول المعارف والعلم بالفروع الدينية (أحكام العبادات والقوانين الجارية في الاجتماع)، وأما في جانب العمل فأحكام الدين وطاعة الزوج فيما يتمتع به منها، وأما تنظيم الحياة الفردية بعمل أو كسب بحرفة أو صناعة وكذا الورود فيما يقوم به نظام البيت وكذا المداخلة في ما يصلح المجتمع العام كتعلم العلوم واتخاذ الصناعات

(١) عن أبي جعفر (عليه السلام) « ... فتصل النطفة إلى الرحم فتردد فيه أربعين يوما، ثم تصير مضغة أربعين يوما، ثم تصير لحماً تجري فيه عروق مشتبكة، ثم يبعث الله ملكين خلّاقين يخلقان في الأرحام ما يشاء الله ...فينفخان فيها روح الحياة والبقاء» الكافي، ج ٦ ص ١٣

والحرف المفيدة للعامة والنافعة في الاجتماعات مع حفظ الحدود الموضوعة فيها فلا يجب عليها شيء من ذلك، ولازمه أن يكون الورود في جميع هذه الموارد من علم أو كسب أو شغل أو تربية ونحو ذلك كلها فضلاً لها تتفاضل به، وفخراً لها تتفاخر به، وقد جوز الإسلام بل ندب إلى التفاخر بينهن، مع أن الرجال نهوا عن التفاخر في غير حال الحرب.

والسنة النبوية تؤيد ما ذكرناه، ولو لا بلوغ الكلام في طوله إلى ما لا يسعه هذا المقام لذكرنا طرفاً من سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع زوجته خديجة، ومع بنته سيدة النساء فاطمة (عليها السلام)، ومع نسائه، ومع نساء قومه، وما وصى به في أمر النساء والمأثور من طريقة أئمة أهل البيت ونسائهم كزينب بنت علي، وفاطمة وسكينة بنتي الحسين وغيرهن على جماعتهم السلام»[1]

فاذا كان يجوز للمرأة؛ بل مما ندب له أن تتفاخر بالمقدار الزائد من العلوم الضرورية لها – بخلاف الرجال – وفي نفس الحال أمرها ألا تخضع بالقول للرجال ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[2] والمراد ألا تخضع بالقول لا من حيث أسلوب الكلام ولا من حيث مضمونه، فهذا يعني أن توازن بين دورين مختلفين، ففي مجتمع النساء يحق لهن أن يتزيّن ويتفاخرن بالفضل من علوم الكسب والتربية، ولكن يجب أن لا يؤدي ذلك إلى مفسده اجتماعية وتتحول هذه الإمكانيات إلى آلة جذب وتحريك لمن كان في قلبه مرض.

وبناءً على هذا المطلوب من التوازن جاءت الفتاوى الشرعية تراعي دفع المفاسد الذي هو أمر أهم من جلب المنافع لتبقى الحركة الاجتماعية والعلاقات بين الرجل والمرأة محمية بسور من القيود الإلزامية فأمر بأن لا تبدي المرأة زينتها

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج٢ ص ٢٧٦
(٢) الأحزاب/ ٣٢

الظاهرية والمعنوية إلا لمحارمها. وقد شدد الفقه من باب ضمان المصلحة الاجتماعية على أهمية هذا التوازن، فقد جاء في الاستفتاءات لسماحة آية الله السيستاني مما لو وقفنا على بعضه لتبين أن الحصانة المطلوبة من المرأة هو قدرة روحية ونفسية كبيرة جداً لا تتحقق إلا من النفوس المتمكنة في الفضيلة.

وقبل ذكر نماذج من هذه الأحكام الفقهية، أشير إلى قيمة هذا الاعتدال والعدالة النفسانية والسير على الجادة. يقول السيد كاظم الحائري[1] في معرض حديثه عن العدالة وأنها كيف نفساني قد يفقده الإنسان إذا كان مقتضى طبعه الوقوع تحت ضغوط عدم التوازن النفسي: « كما لا ينبغي الإشكال في أنّ مجرّد ترك المعاصي ومن دون وجود الرادع النفساني الإلهي عنها لا يعتبر استقامة في الدين، كما لو حدث صدفة أو لكونه حديث العهد بالبلوغ أو التوبة أو نحو ذلك. ولا ينبغي الإشكال كذلك في أنّ ترك المعاصي مع وجود ذلك الرادع الإلهي يعتبر استقامة في الدين، ولا نقصد بذلك الرادع ما يشبه الرادع الموجود لدى المعصوم (عليه السلام)، بل المقصود به ذاك الذي يتميز بخاصتين:

الخاصة الأُولى: أن يكون كافياً في الحالة العادية للنفس لدى المغريات الاعتيادية والشهوات المتعارفة للردع وحجز النفس عن المعصية وإن كان من المحتمل أن يتفق صدفة انزلاق الشخص بسبب تصادف قوة المغريات بشكل غير مألوف أو بسبب تصادف ابتلاء هذا الشخص بانهيار نفسي أوجب انزلاقه.

(١) السيّد كاظم بن السيّد علي بن السيّد جليل بن السيّد إبراهيم الحسينيّ الحائريّ. ينتهي نسبه للإمام زين العابدين (عليه السلام)، مرجع شيعي عراقي مُعاصر مقيمٌ بمدينة قم الإيرانية، ويُعد من القيادات الدينية والسياسية البارزة في الساحة العراقية.

الخاصة الثانية: أنّه متى ما انزلق هذا الشخص صدفة لأحد السببين يندم ويتوب في أسرع وقت بسبب ذلك الرادع، ولعلّ هذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1]

ولا شك أن طبيعة المرأة أكثر ميلاً للمغريات، وهي الخاصرة الرخوة في الجسد الاجتماعي التي يمكن أن يستغلها الأعداء للسيطرة على المقدرات السياسية والفكرية والاقتصادية يقول السيد القائد (حفظه الله): «قرأت خبراً أن أحد المسؤولين في مركز سياسي مهم في أمريكا قال بدل إلقاء القنابل أرسلوا لهم تنانير قصيرة! صحيح ما يقولون إذا ما عُمل على إشاعة الغرائز الجنسية والاختلاط اللا مدروس بين الرجال والنساء والشباب والشابات وجرّوا الشباب إلى طُرقٍ هو بطبيعته يميل إليها فإنّه لا حاجة للاستفادة من الأسلحة ضد هذا الشعب... إنّ الفساد بنفسه يضيّع ويهلك ويدمّر مستقبل شعب»

وأذكر هنا نماذج من الفتاوى الشرعية التي تحقق هذه الضوابط:

– السؤال: هل يجوز التحدث مع فتاة عن طريق الهاتف مع خلو الحديث من الكلام السيء أو المثير للشهوة؟

– الجواب: لا يجوز لما فيه من خوف الوقوع في الحرام ولو بالانجرار إليه شيئاً فشيئاً.

– السؤال: حكم المراسلة بين البنت والولد عبر الإنترنت هل هو حرام أم حلال... مع العلم أن الذي يدور مجرد السؤال عن الصحة وعن موضوعات اجتماعية متفرقة؟

– الجواب: لا يجوز لما فيه، من خوف الانجرار إلى الوقوع في الحرام.[2]

---

(١) الأعراف/ ٢٠١

(٢) الاستفتاءات، السيد علي السيستاني، الحديث مع الأجنبي.

مقومات التحصين الاجتماعي

إن أهم مقومات التحصين الاجتماعي هي مجموعة أمور:

١ / التعفف في معناه الواسع:

ونقصد بالعفة هنا: الملكة الأخلاقية التي تعالج في مجال فلسفة الأخلاق وليس السلوكيات الفقهية فقط. ولا نقصد بالعفيفة المرأة الضعيفة، فهناك خلط كبير في المصداق بين العفيف والضعيف.. فالعفة قوة نفسية، والروايات شاهد على هذه الحقيقة ومن ذلك ما ورد عن الأمير (عليه السلام) «ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر فعفّ، لكاد العفيف أن يكون ملَكاً من الملائكة»[١]

إن المقارنة بين العفة والشهادة التي هي اختيار الحياة الطاهرة من الأبدال والأغيار، وانتخاب القرب الإلهي على عالم التكاثر، تحتاج إلى شجاعة باطنية واقتدار وبذل للإمكانيات المادية للحصول على مكانة معنوية أرفع وأسمى. فحقيقة العفة أنها اقتدار نفساني للوصول إلى حياة أطهر وتمكّن معنوي للتخلص من الأرذل الأدنى.

إن نفس مفهوم الحَصان[٢] يستبطن القوة والمناعة، لأن الضعف أمام المستجدات كاشف عن ميوعة وتقلّب وفقد للسيطرة على مركز القرارات. وكذلك التحجر والجمود لا يعني الثبات والاستقامة، بل هو كاشف عن شخصية انهزامية تفرّ من الوظيفة وتتخفّى وراء التاريخ.

فلا مَن تسارع لالتقاط كل جديد تمتلك التوازن والثبات؛ ولا التي تقف بلا حراك وتغفل عن اللوابس يمكنها أن تكون حصناً منيعاً دون الاختراق، فكلتاهما تمثلان دوراً انهزامياً لكنه متضاد في المظهر.

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) الحَصان في اللغة العفيفة من النساء.

إن العفة بالمعنى العام هي قوى علمية واقتدار عمليّ، ومن مظاهرها العفة الأدب في اللسان والبيان والبنان والسلوك. ونحن إذا تأملنا الخروقات الاجتماعية والثغور التي تحول المجتمع إلى لقمة سائغة سنجد أن أولها فقد الأدب.

إن أحد جوانب إعجاز القرآن الكريم أنه كتاب آداب. أضرب مثالاً لذلك: ترى كم حارب المشركون والكفار الرسالة الإلهية؟! ففي أبي سفيان وحده نزل ما يقارب المائة آية، وقد كان عدواً للرسالة الإلهية منذ بعثة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى آخر حياته، لكن – مع ذلك – لم يتعرض القرآن لممارساته الشخصية الأخلاقية في آية واحدة.

يقول أستاذنا الشيخ الجوادي الآملي[1] أن القرآن لم يسبّ أحداً أبداً مع كثرة ذكره للحروب والغزوات وظروف المصادمات التي نزلت فيها آياته، وإذا وصف القرآن صنفاً من الناس بأنهم كالحمار أو كالكلب فإنه يصفهم بلحاظات فقد العلم أو عدم القدرة على تحمل الدور العملي. نعم قال القرآن ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[2] وقال: ﴿مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[3] لكن إذا دققنا فإن هذه الآيات نزلت في بيئة تستخدم هذه الأسماء لأغراض مسلوبة القبح، فقد كان هناك من يسمى ببني كلاب، وبنت جحش، وعنترة، وبني أسد... بل إن العرب إلى الآن تسمي بالقروص والنمر، ولا ترى في ذلك نقصا، فالمهم هو وجه التشبيه.

وفي تاريخ صاحب هذه المناسبة مثال حي لذلك الأدب القرآني، فقد كان

---

(١) آية الله الشيخ عبد الله الجوادي الآملي (١٩٣٢ – ..) فيلسوف، مفسر وعالم دين إسلامي ومرجع شيعي، مؤسس مؤسسة الإسراء للبحوث في مدينة قم الإيرانية، وأحد أبرز علماء الدين الإيرانيين وهو من تلامذة المفسر والفيلسوف الإسلامي الكبير محمد حسين الطباطبائي وهو من أشهر المفسرين والفلاسفة الشيعة في الوقت الراهن.

(٢) الجمعة/ ٥

(٣) الأعراف/ ١٧٦

أكبر عدو للإمام الخميني هو الشاه، وقد كان بيت الشاه وعائلته وخصوصاً أشرف بهلوي[1] معروفون بسوء السلوك، ولكن الإمام لم يتعرض أبداً حتى لسبّ الشاه وهذه وصية الأمير لأصحابه «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين»[2]

والإمام الخميني (قدس سره) يشبّه المرأة بالقرآن في هذا البعد من الآداب، لأن مقتضى كونها عاطفية يعني أنها تدرك مواقع الجماليات، فهي نقطة قوتها في صون لسانها وحجب نفسها عن متابعة العيوب الشخصية للآخرين، وهذا الحس الروحي هو الضامن لعدم انهدام الأدب الاجتماعي.

إذن يمكن للمرأة أن تشكل حصانة عفة وأدب، وأن تكون قوة رادعة وفاعلة في المجتمع، وليست منفعلة فقط. وتكون سداً مانعاً لكل ما يهدم الآداب والأخلاق والسلوك الراقي الاجتماعي، ويمكنها بذلك أن تحقق الأمان الاجتماعي.

فلو افترضنا أن كل امرأة هي حَصان عن الرجال فسيعيش المجتمع أماناً في البيت، وفي الشارع، وفي السوق، وفي العالم الافتراضي أيضا؛ لأن الرجال سوف يواجهون حصوناً منيعة قوية يصعب تجاوزها. وما انهيار المجتمعات أخلاقياً؛ بل حتى سياسياً إلا بسبب وجود امرأة تفقد هذه المَلَكة القيّمة فتسلب المجتمع أمانه واعتداله وبالتالي عدالته وقدسيته.

وفي ظل التحديات الكبرى والخروقات الواسعة وضياع الأولويات؛ فإن المرأة العفيفة هي التي تضبط الساحة عن الالتقاط الفكري والنفسي

---

(١) هي أميرة إيرانية. ابنة الشاة رضا بهلوي مؤسس الدولة البهلوية والشقيقة التوأم لمحمد رضا بهلوي آخر شاه حكم إيران قبل قيام الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩م.

(٢) نهج البلاغة.

والعملي، خاصة وأن في تاريخنا سيدات الإسلام فاطمة وخديجة وزينب (عليهن السلام). التي كانت كل واحد منهن تمثل جيلا، فبين حركة أم المؤمنين خديجة وحركة الصديقة الزهراء والسيدة زينب أجيال ومتغيرات وتداعيات مختلفة، ولكنهن كنّ يتمتعن بنفس العفة والاقتدار النفسي الذي يتناسب والمرحلة، في حال أننا – غالباً – ما نعلّق فشلنا في هذا المضمار على التغيرات الأجيالية، ونصورها وكأنها رياح تقتلع الثوابت وتعصف بالعقول والأخلاق فترديناً بلا إرادة.

ولأهمية هذا البعد، وكونه المحكّ الكاشف عن الأدب الإسلامي الرفيع الذي يرفع من سقف تحصين المجتمع، أذكر شواهد تاريخية من حياة من أُمرنا أن نتأسى بهن: خديجة أم الأئمة، وفاطمة والسيدة زينب (عليهن السلام).

إن حياة هؤلاء السيدات مليئة بالجهاد والمواجهة والمعارضة للانحرافات الاجتماعية في عصرهن، وإن كان التاريخ لم ينقل لنا جزئيات كثيرة من سيرتهن، إلا أنه حفظ لنا هذا المقطع الجهادي من حياتهن.

خديجة بنت خويلد (عليها السلام) سبقت كبار الرجال في تشخيص حقّانية الرسالة المحمدية والوحي المنزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكانت حصناً للنبي (صلى الله عليه وآله) إذ خذله الناس؛ بل حصناً للدعوة الإسلامية بكل ما تمتلك من وجاهة وتاريخ وأموال.

فمع ما تعرضت له هذه السيدة الجليلة من مواجهة عنيفة من مجتمعها، إلا أنها لم تلجأ لدور انفعالي، ونحن نعلم أن المرأة في العادة تضعف إذا واجهها المجتمع وقاطعها، وتنفعل حيال ذلك، ومعلوم أن الحل الأقصر لإسقاط أي عدو هو ذكر مثالبه ونقائصه وعيوبه الأخلاقية الشخصية، ولكن هذا موقف انفعالي لا يتناسب وعقلانية من يحمل ديناً إلهيا، فلم تلجأ له خديجة (عليها السلام).

وهذا يؤكد أن الحصانة متقومة بالفعل (البناء الفكري) والانفعال المتناسب مع ذلك البناء الفكري (التأثر السلوكي بالمعرفة).

وكذلك الصديقة الطاهرة فاطمة (عليها السلام)، فرغم ما جرى عليها من ظلم من قبل الأمة، ومع معرفتها بنقاط ضعف منافقي عصرها؛ إلا أنها لم تستنكر عليهم بسبّ أو شتم. نعم، ذكرت خوار قواهم، وعدم اتخاذهم الموقف المناسب بالحجج والبراهين والأدلة العقلية والنقلية؛ ولكنها لم تستغل نقاط ضعفهم ولو عبر مجرد كشفها.

وفي جيل ثالث وبعد ما يقارب الستين عاماً – وهي سنوات حافلة بالتغيرات كما هي سنّة الحياة – كانت زينب (عليها السلام)، وكانت كربلاء كاشفة للسوآت والعيوب الشخصية، ولكن زينب (عليها السلام) لم تتعرض لسبّ القوم، بل ذكرت فعالهم وحللت مواقفهم، وانتقدت تضييع المجتمع لمصالحه الواقعية، وتوثبه على ما يفسد تاريخه ومستقبله.

إن هذه المواقف تشكل في ثقافتنا الدينية ثوابت الحوار وأدب الاختلاف وأدب الجهاد، وترسم مدرسة متكاملة راسخه لمعنى العفة التي يدعو لها الإسلام.

ويبقى هذا سؤالٌ عريض: أين هي العفة في حياتنا اليوم؟

أليس خسران هذا العنصر يدس في داخلنا ما ليس منا ويحرفنا عن أهدافنا؟

وقيسوا على ذلك عدم العفة في النوايا وتلوث العقل، فهل يبقي هذا أو يذر؟؟!

٢ / الاهتمام بمعالي الأمور:

وهو العنصر الثاني من عناصر التحصين الاجتماعي، فالحصن إنما يجدر أن يُتحصن به إذا كان عالياً لا يمكن للعدو أن يعبر من فوقه. هذا في الحصن المادي، أما في الحصن النفسي فإن الانشغال بسفاسف الأمور يسلب الإنسان الفطنة والبصيرة، أو لنقل يفقده الوقار الروحي الذي هو الملاك في تعقل الموقف.

ترى لماذا ورد عندنا في الروايات أن ثلث العقل في التغافل؟[١] لا شك أنه ليس المراد هنا التغافل عن المخاطر الكبار التي تهدد المجتمع، وإنما التغافل عن الأمور الجزئية التي تموت بتجاهلها. فالوقار يصاحب الإيمان في الصفات، والتغافل يحتاج لضبط نفسي ويعين على إسكات هذيان النفس وهذرها وهدر طاقاتها، فإذا كان الإنسان سيغضب وينفعل أو يتخذ موقفاً من الآخرين عملياً لكل ما لا يروق له فإنه سيفقد موقعيته واقتداره على التأثير ويفقد وقاره، ولا يمكن حينها أن يكون مؤثراً ومحصِّنا.

وسمة التغافل من أهم سمات المرأة الأم، وهل الأمومة إلا التفطن في الأصول والتغافل عن صغار الأمور وإعطاء الفرصة تلو الفرصة للتوبة والأوبة، وضم العجز في حضنها الدافئ حتى يتلاشى بالمقابلة بالضد؟ إن ميزة الأمومة هو هذا الدفء الذي كثير منه تعامٍ مقصود وتغافل متعمد.

٣ / إزالة الموانع وإذابة العوائق:

وهو العنصر الأخير في عملية تحصين المجتمع.

---

(١) قال الإمام الباقر (عليه السلام): «صلاح شأن الناس التعايش والتعاشر ملءُ مكيال: ثلثاه فطن، وثلث تغافل» بحار الأنوار، ج ٧٤ ص ١٦٧

إن كل إنسان يريد أن يفجر أمامه، أي يزيل الموانع عن طريقه ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾[1] فإن كان من أهل الفساد فهو سيحارب الصالحين، ويكسر قيود العرف والأدب، ويقفز على المبادئ والقيم، ويحطم كل ما يمنعه من الوصول لما يشتهي، بل ليفجر أمامه – بالتعبير الدقيق للآية –

وإن كان الإنسان من أهل الذكر والطاعات والعبادات وممن يطمئن قلبه لذكر الله ومناجاته فهو بشكل دائم يزيل كل الحجب التي تمنعه عن الذكر.

وإذا كان من أهل التقوى فهو أيضاً سيفجر كل ما يقف حاجزاً دون بلوغه مناه، وسيطرد كل ما يصدّه عن مبتغاه، لأنه يريد مجتمعاً صالحاً يتناغم معه. هذا أيضاً يريد أن يفجر أمامه. وهذا السلوك هو من لوازم الحصانة الاجتماعية، وهو ينعكس على كل سلوكيات المجتمع تلقائيا.

الزهراء وحصانة الأمة

أما ادعاؤنا بأن الزهراء (عليها السلام) نموذج كامل للتحصين الاجتماعي، فسيرتها تحكي بأنها الفاطمة المحصّنة للأمة وللرسالة، ويكفينا على ذلك شواهد ثلاثة:

١– إصرارها على إخفاء قبرها – مع ما في التبرك بقبرها من آثار معنوية – وتمسكها بأن تترك خلفها سداً منيعاً حائلاً دون انزلاق الأمة أمام مغريات السلطان والوجاهة والمال الذي حازته السلطة عن طريق الفتوحات واشترت به ضعاف النفوس. كان موقفها مؤمّنا لكل مسلم ومسلمة عن التراخي والوهن والضعف والانهيار، ومثالاً للممانعة عن الانسياق للرأي العام الذي

(١) القيامة / ٥

يستبدل النموذج الأصيل بالدخيل ويستبدل القوادم بالذنابي.

٢- إذا كانت الطبقة الأجيالية في علم الرجال ثلاثين سنة فالآن مع المتغيرات أزيلت هذه الفوارق، فالشيخ والشيخة أصبحا يتصابيان في اللبس والمنطق ونمط الحياة، ولكن الزهراء (عليها السلام) كانت تكبر في اليوم بمقدار شهر وفي الشهر بمقدار سنة - كما في الأخبار - ولا شك أن معنى ذلك أنها كانت تزداد عقلاً ووقاراً وصبراً وتحملاً حتى صارت الممتحنة على الإطلاق، وكانت ثابتة المعايير مع تغير الظروف والأوضاع حيث بدأت بنت النبي المكذب المطرود، وفي أواسط حياتها كانت بنت الزعيم المنتصر القائد الفاتح، وفي آخر حياتها كانت في ظرف آخر تماما. وهذا هو الوقار الروحي الذي يستحيل معه التقلب وتغيير الموازين. ومحور الحصانة استحكام الثوابت.

٣- تسمية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لها بأنها سيدة نساء العالمين، ولم يقل سيدة نسوة العالمين، فعلاوة على ما في الاختلاف الوضعي بين اللفظين من القلة والكثرة هناك من حيث الاستخدام القرآني للفظين تفاوت جذري.

فلفظة النساء جاءت في القرآن الكريم بما يقارب ٤٢ مرة من مجموع الخطاب الموجه للمرأة، وغالباً ما يتعلق بتنظيم وترتيب وضعها في داخل المجتمع الإسلامي. فالقرآن حين يريد أن يعبّر عن المرأة باعتبارها مكوناً اجتماعياً صالحاً ومصلحاً له حضوره وفاعليته، فهو يعبر عنها في المجموع بالنساء ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا..﴾[1] ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾[2]

(١) الفتح/ ٢٥

(٢) الأحزاب/ ٣٢

﴿الرِّجَالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[1] وغالباً ما يقصد بهذه التسمية إصلاح وضع أسري أو اجتماعي أو اقتصادي.

أما التعبير بـ النسوة فلم يرد إلافي موضعين في سورة يوسف يتعلقان بتجمع مفسد، أو ذو اهتمامات تافهة، كالكيد والنميمة والقذف ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾[2] وفي آية ثانية نجد نفس التعبير لنفس الغرض ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[3]. من هنا فاذا كانت فاطمة سيدة نساء العالمين؛ فهذا يعني أنها سيدة المصلحات وسيدة الفاعلات.

ختاما

إذا قيل أن أقوى طريق للمعرفة هو الوجدان الفطري، وأن دليل الحسن والقبح وجداني، فإن الزهراء (عليها السلام) وجدان العفة الذي يجرنا فطرياً إلى الاشمئزاز من كل سلوك وممارسة تنافي العفة. ونفس هذا الشعور هو توبة وتطهير روحي، يتحول تدريجياً إلى منطق اجتماعي، وهو المنشأ لتحقيق حصانة اجتماعية.

ويمكن أن نوجز هدفنا بالقول: إن دور المرأة في البناء الاجتماعي يكون بالحصانة المتقومة بالعفة والاهتمامات الكبرى، وإزالة الموانع للوصول إلى مقام الذكر الذي يتفرع عنه الاستقامة والوعي والايمان.

وأظن أن هذا العنوان اليوم هو عنوان مهم، خصوصاً مع الغزو الثقافي الأخير الذي يحاول أن يقصف كل البنى التحتية للأخلاق والفكر.

(١) النساء/ ٣٤
(٢) يوسف/ ٣٠
(٣) يوسف/ ٥٠

مقالات

فاطمة الحوراء الأنسية (١ - ٢)

ورد عن رسول الله (ﷺ) قوله: «لما عرج بي إلى السماء أخذ بيدي جبرئيل فأدخلني الجنة فناولني من رطبها فأكلته فتحول ذلك نطفة في صلبي، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة، ففاطمة حوراء إنسية، فكلما اشتقت إلى رائحة الجنة شممت ابنتي فاطمة»[1]. وورد في زيارة الزهراء (عليها السلام): (السلام عليك أيّتها الحوراء الإنسيّة).

ويتبيّن من كلا المقولتين أنّ (حوراء إنسيّة) صفة كمال، حيث أنّ الزيارة في مقام ذكر المآثر والفضائل، كما أنّ مقولة النبيّ (ﷺ) توحي بذلك أيضاً.

إن سبْق صفة (حوراء) التي تفيد عمق الارتباط بعالم الغيب على صفة (إنسيّة) يستفاد منه في أبحاث عدّة منها العقائديّ ومنها الأخلاقيّ ومنها الاجتماعّي.

يجدر أن نؤكد أن عقيدتنا في الصدّيقة الزهراء (عليها السلام) تتطابق وعقيدتنا في ليلة القدر، فإذا كانت ليلة القدر كلّها بركات وخيرات، وسلام وأمان يتنزّل على أهل الأرض، فإنّ فاطمة (عليها السلام) سماويّة التكوين (حوراء)، وهي رحمة للناس أنزلها الله إلى الأرض بثوب بشريّ (إنسيّ).

تجدر الإشارة إلى أن مسألة إنزال الحقائق إلى عالم المادة من أهم الأبحاث القرآنية. بل إنّ القيمة الحقيقيّة لآيات الله التي نتلوها تكمن في حكايتها لذلك العالم الواقعيّ الذي رآه رسول الله (ﷺ) بفؤاده، ثمّ تنزّل على قلبه بشكل ألفاظ وكلمات إلهيّة.

وإنزال وترقيق هذه الحقائق من عالم المعاني والواقعيّات إلى حيّز الألفاظ هو

---

(١) عيون الأخبار.

طريق هداية بني الإنسان إلى عالم الغيب وإيصالهم إلى المعرفة الحقّه، لأنّ الألفاظ هي سلّم العروج البشريّ إلى الحقيقة. إذ تسمى عمليّة إلباس الحقائق ثوباً بشريّاً إنسيّاً (إنزالا). وهذا لا يعني أنّ هذه الحقائق كانت موجودة فوقنا في السماء ثم نزلت مكانيّاً إلى الأرض؛ بل بمعنى أنّ تلك الحقائق كانت في مرحلة أوسع وأكثر حقّانية ووضوحاً وتأثيراً وفاعليّة وواقعيّة، وبتحوّلها إلى عبارات وكلمات ستنزل إلى مستوى عقول البشر وتصوّراتهم، التي هي في الأغلب مقيّدة ومحدودة ومشوبة.

إنّ مثل وجود الزهراء (عليها السلام) في عقيدتنا مثل نزول القرآن الكريم. فكما أنّ القرآن حقيقة تنزّلت على شكل ألفاظ من عالم الغيب لأجل هداية البشر، فكذلك الزهراء (عليها السلام)، هي من جهة (حوراء) أي أنّها موجود معنويّ حقيقيّ نابت في ذلك العالم الأصيل، حتّى أنّ نطفتها الأرضيّة كان يجب أن تكون من ذلك العالم، وليس التعبير عنها بتفاحة الفردوس [1] إلا إشارة إلى ذلك العالم الفردوسيّ القدسيّ.

وهي (عليها السلام) من جهة أخرى (إنسيّة) لكونها طريقاً لهداية البشر، وفتح أبواب الرحمة والبركة والشفاعة والرضا والعبودية لله تعالى، فكان لا بدّ من أن يتحوّل تكوينها (الحوريّ) في مرحلة نازلة إلى تكوين (إنسيّ) لتقوم بمهمّة الهداية. ونحن كما نحتاج في عالم الشهادة إلى أسباب ومفاتيح لكلّ أمورنا، فنحن نحتاج كذلك إلى مفاتيح للولوج إلى عالم الغيب.

والتركيز على (حوريّة) الزهراء ثم (إنسيّتها) في مرتبة ثانية غايته أن

(١) «...اللّهُمَّ صَلِّ عَلى محمّد وَأَهْلِ بَيْتِه، وَصَلِّ عَلى البَتُولة الطَّاهِرَة الصّديقة المَعْصُومَة التَّقيَّة النَّقيَّة الرَّضيَّة الزَّكيَّة الرَّشيدَة المَظْلُومَة المَقْهُورَة المَغْصُوبَة حَقُّهَا، المَمْنُوعَة إرْثُها، المَكْسُور ضِلْعُها، المَظْلُوم بَعْلُها، المَقْتُول وَلَدُها، فاطمَة بنْت رَسُولِكَ، وَبَضْعَة لَحْمِه، وَصَميم قَلْبِه، وَفلْذَة كَبِدِه، والتحيّة منْكَ لَهُ، وَالتُّحْفَة التي خَصَصْتَ بها وَصِيَّهُ وَحَبيبَه المُصْطَفَى وَقَرينَة المُرْتَضى، وَسَيِّدَة النِّساء وَمُبشِّرة الأَوْلياءِ، حَلِيفَةِ الوَرَعِ وَالزُّهْدِ، وَتُفّاحَةِ الفِرْدَوْسِ وَالخُلْدِ...». زيارة السيدة الزهراء (عليها السلام)، كتاب الإقبال لابن طاووس.

نلتفت إلى أنّ ما نعرفه عن حياة الزهراء (عليها السلام) وما نقرؤه من سيرتها (عليها السلام) يجب أن نربطه ببعدها الغيبيّ الأصيل. وقد وقع البعض في الاشتباه حينما أراد أن يتعرّف على خصوصيّاتها مستثنياً أصالة الحوريّة فيها.

وهذا لا يعني أنّ سيرتها (عليها السلام) مجموعة طلاسم لا تُفهم ولا تصلح للتأسّي، فهي (عليها السلام) إنسيّة بنفس درجة حوريّتها، أي أنّ فيها خصائص البشر، فهي تتألّم وترضى وتغضب وتحبّ وتحنو على أبنائها، وتجتهد في أداء وظائفها الأسريّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

بل إنّ إنسيّتها أكثر عمقاً من أيّ إنسان، فألمها لما يجري على أبنائها مثلاً أشدّ من ألم أيّ إنسان آخر على أبنائه، ذلك أنّ الأمومة شعور بشريّ وفطريّ متّصل بقيم الإنسان، وإنّه لخطأ فادح تصوّر أصحاب المثل والهموم العالية أشخاصاً تخلّوا عن مشاعرهم الخاصّة وفرّغوا أنفسهم للشأن العامّ، فالدين قد اهتمّ بشؤون الفرد كما اهتمّ بالشأن العامّ، ومن لا يحنو على الأقربين ويهتمّ بشؤونهم الخاصّة، فكيف يصلح لحمل رسالة اجتماعيّة؟!

فالزهراء (عليها السلام) في بعدها البشريّ كاملة الأمومة والبنوّة والزوجيّة. ولكننا نحتاج إلى قراءة بعدها البشريّ ممزوجاً بحوريّتها ليظهر لنا العمق والبعد الإلهي فيه. فالنبيّ (صلى الله عليه وآله) سيّد البشر أجمعين كان يشّم في بدن الزهراء (عليها السلام) رائحة جنّاويّة، فذلك الموجود الحوريّ لم يفقد رائحة الجنّة، رغم تنزّله في شكل وجود بشريّ. فكان (صلى الله عليه وآله) إذا اشتاق إلى الجنّة بكلّ طهرها ومعانيها شمّ بدنها (عليها السلام).

ومن هنا كان ظلم الزهراء (عليها السلام) على درجة من البشاعة تتناسب مع درجة القدسيّة التي تحملها (عليها السلام)، إذ يقال أنّ قبح الظلم ذاتيّ، لكن تتفاوت درجاته بحسب درجات وجود المظلوم، فإذا أُعطي متفوق درجة أقلّ من استحقاقه فهذا عند العقلاء أقبح من ضربه، لأنّه ظلم في خصوصيّاته التي تميزه عن غيره.

الزهراء (عليها السلام) موجود أحاطه الله تعالى بأعظم البشر على وجه الأرض فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أباها، وعلي (عليه السلام) زوجها، وكان الحسنان (عليهما السلام) ولديها، وكان هذا عن استحقاق، لأنّ المحاباة بلا أهليّة فعل قبيح لا يصدر عن الله تعالى، بل هو تقدير إلهيّ حكيم، فيه إشعار بعظيم درجاتها (عليها السلام). من هنا فظلمها مع كل هذه الخصوصيات هو غاية القبح والبشاعة.

فاطمة الحوراء الأنسية (٢ – ٢)

القرآن الكريم يصف الحور العين في سلوكهم العملي بقوله ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾[١] وهذا السلوك هو بلا شكّ مقارن لوضعهنّ الروحيّ والواقعيّ، فالسلوك في ذلك العالم ما هو إلا ظهور للباطن.

وتعبير (مقصورات في الخيام) يشير إلى شدّة احتجاب الحور، واقتصارهنّ على البقاء في الخيم الجنّاوية، وهي بلا شكّ ليست كخيام الدنيا. ولم تصف الآيات نوع هذه الخيام، لأنّ الآيات تهدف إلى الإشارة إلى مسألة مهمّة جدّاً وأساسيّة في ارتباط هذا السلوك العمليّ بنعيم إلهيّ هانئ لا يكذبه سليم الفطرة ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[٢]

وللتفصيل في هذا المعنى نسأل: ما هو وجه النعيم في الاحتجاب؟

لقد أوجب الإسلام الحجاب على المؤمنات، وهذا أمر شائع في سائر الشرائع التي ميّزت المنتميات إليها بشعار ما. بل إنّنا نجزم بلا تردّد بقاعدة مفادها: أنّه كلّما اشتدّ الإيمان وتعمّق في باطن النفس كلما كانت له آثار عملية. وفي شأن المرأة فإن أوّل مظاهر إيمانها ولوازم عملها الصالح هو الحجاب، إلى حدّ اتّفقت سيرة المتشرّعة على كونه كاشفاً عن صلاح المرأة.

يرى بعض الفضلاء أنّ المِلاك في الاحتجاب، والتحفّظ حيال كلّ ما يخالفه، ووجوب خلوّه من عوامل الإثارة وحفظه للوقار – بغضّ النظر عن شكله – هو الحفاظ على المصالح الاجتماعيّة، وصيانة المجتمع من الوقوع في الانحرافات الأخلاقيّة، وبالتالي الوقوف في وجه تكوّن علاقات غير مقنّنة يترتّب عليها فوضى اجتماعيّة. إذ أنّ التوارث وانتقال الملكيّة يثبت بالنّسب الناتج عن التوالد

---

(١) الرحمن/ ٧٢

(٢) الرحمن/ ٧٣

والعلائق الرحميّة، وحينما تحلّ هذه العلائق وتضيع، بسبب التهاون في مقدّمات حفظ الروابط المشروعة، والتي من أهمها الحجاب، ينحلّ المركّب الأسريّ الذي هو المعقل الأوّل للبنية الاجتماعية. وقد قيل في تفسير ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا..﴾[1] أنّ الآية لا تقف عند حدّ النهي عن ارتكاب الفاحشة الكبرى، بل تنهى عن مجرّد الاقتراب منها، إذ تقول: (لا تقربوا) أي أنّها تنهى عن مقدّماتها، والتي من أهمّها عدم الحشمة وترك الحجاب.

ونعلّق على هذا الرأي بالقول: لا شكّ أنّ هذه المصلحة مرادة من الشارع سواء ثبتت بآيات الحجاب، أو بوصايا الدين العامّة في الشأن الاجتماعي. فالحفاظ على السلوك الاجتماعيّ النزيه مطلوب عقلائيّ، وهو كذلك أحد فرائض الشرائع الإلهيّة كلّها.

ولكن إذا دقّقنا في الآية التي تصف الحور ونساء الجنّة بأنّهنّ محتجبات؛ بل في غاية الخفاء بحيث تقتصر حركتهنّ في الخيام، سنجد أن هذه المصلحة (الحفاظ على السلامة الاجتماعيّة وعدم وقوع المفاسد) ليست هي الغاية النهائيّة من هذا الاحتجاب، إذ أنّ عالم الجنّة مأمون من كل أنواع الفساد الفرديّ والاجتماعيّ، وكذلك ليس في تلك النشأة توالد وتناسل وتكاثر، فحدوث اختلاط الأنساب ووقوع الفوضى الاجتماعية أمرٌ منتفٍ.

ومن هنا نعرف أنّ هناك مصلحة ذاتيّة في الاحتجاب، وتلك المصلحة محفوظة في كل العوالم، ولعلّه يصحّ أن نعبّر عنه بـ (البعد الأخلاقيّ للحجاب).

(١) الإسراء/ ٣٢

الحجاب فضيلة عليا

الحجاب في حدّ نفسه فضيلة عليا، وآثاره تتجاوز الشأن الاجتماعيّ بكثير. ففي الحجاب خيرات روحيّة ومعنويّة وربّانيّة، ونعيم واقعيّ مطلق لا يقتصر وجوده على عالم دون آخر، وسيرة الزهراء (عليها السلام) مليئة بشواهد على ذلك، فالرواية الواردة المشهورة عن عليّ (عليه السلام) قال: «كنّا جلوساً عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: أخبروني أيّ شيء خير للنساء؟ فعيينا بذلك حتى تفرقنا، فرجعت إلى فاطمة، فأخبرتها الذي قال لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وليس أحد منا علمه ولا عرفه. قالت: ولكنّي أعرفه: خير للنساء أن لا يرين الرجال، ولا يراهن الرجال، فرجعت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت يا رسول الله، سألتنا: أيّ شيء خير للنساء؟ وخيرهن أن لا يرين الرجال ولا يراهن الرجال. قال: من أخبرك، فلم تعلمه وأنت عندي؟ قلت فاطمة، فأعجب ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: (إن فاطمة بضعة منّي)»[1]

لقد كان في المسجد كبار الصحابة ومنهم علماؤها سلمان وابن عباس وغيرهم ممن عرف ذوق الدين، لكنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يرتض إجاباتهم، ولم يرها كاملة، وارتضى جواب الزهراء (عليها السلام)، بل إنّه عرفه وميّزه لأنّه جواب حوريّ، فقد كان سؤال النبيّ (صلى الله عليه وآله) عن الأفضل والخير بالنسبة للمرأة، وكان جواب الزهراء (عليها السلام) هو (الاحتجاب) الذي يشبه سلوك وسيرة حور الجنّة.

نحن نعلم أن السلوك العمليّ يحيي حسّاً مودعاً في أعماق الإنسان، وإذا كان للموجودات بصمات وسمات إلهيّة قد ملأت أركان الوجود، فإنّ للمرأة بصمتها الربّانية وسمتها الجنّاويّة. يقال في العرفان والفلسفة الإلهيّة: كمال الشيء محوضته في ذاته، أي أن كمال الشيء أن تظهر عليه الأسماء الإلهية

(١) كشف الغمّة، العلامة الإربُلي، ج ١ص ٤٦٦

المكنونة في ذاته، فيتعرّف بها «اللهم إني أسألك بأسمائك التي ملأت أركان كل شيء» . وكلّ معرّفات الإنسان لا قيمة لها، وهي زائلة إلا التعرّف بالله وصفاته وأسمائه.

وأحد أسماء الله الباطن والمحتجب. والفلسفة الحقيقية للحجاب هي ظهور هذا الاسم في سلوك المرأة وفي شخصها وأن تتعرّف به.

من هنا يتضح أن جواب الزهراء (عليها السلام) (خير للنساء أن لا يرين الرجال ولا يراهن الرجال) هو جواب حوريّ يتّكئ على فهم عميق جداً للشريعة وآثارها ومقاصدها البعيدة.

ثم إن استقام لك المعنى فانظر إلى من كانت ترى أن خيرها وحفظ حوريّتها وصيانة مقامها يكون في شدّة احتجابها، وهي مستعدّة أن تدفع عنه بكلّ كيانها، فإذا بها تدفع به عدوّها... فأي مظلومية أعظم من هذه!

فاليوم أخشع للذليل وأتّقي *** ضيمي وأدفع ظالمي بردائيا

الزهراء (عليها السلام) موجود عالم الملكوت (١ - ٢)

يقول الإمام الخميني (قدس سره) في جدته الزهراء (عليها السلام): «إنّها ليست امرأة عاديّة، بل موجود مَلَكُوتي قد ظهر في العالم في صورة إنسان، موجود إلهي جبروتي ظهر بصورة امرأة.»

بداية أرجو أن لا تتأملوا في حديثي هذا شيئاً من بيان عظمة الزهراء (عليها السلام)، إذ أن هذا الطموح فوق حد الإمكان للجميع بلا استثناء، ما خلا أبيها وكفئها بعلها (عليهما السلام). ذلك أن لفضائل الزهراء (عليها السلام) من السعة والإحاطة والكثرة ما لا يتصوره ذهن بشر، فهي تجلٍّ لعالم الجنان، وهي ريحانة الفردوس في نشأة الدنيا، فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كان يشم أهل المدينة في طريق عبوره روائح العطر والطيب كان هو ذاته يشم منها رائحة الجنة.

فاطمة هي الكوثر الذي لا يدخل الجنة من حرم منه، فقد جُعل ملاك الجواز على الصراط والدخول للجنة أن يسقى المرء من هذا النهر، وبالإضافة إلى أن وجودها (عليها السلام) منزه من كل نقص وعيب؛ كذلك هي علة للتطهير من النقائص والعيوب. وكفى عالم الإسلام فخراً أن تكون هذه المرأة هي الفلك الذي تدور حوله نجوم الإمامة، وهي الفيض الذي انتشرت منه أعلام الهداية وأزهرت منه مشاعل البشرية. ورد في زيارتها (عليها السلام) «وَسَلَلْتَ مِنْها اَنْوارَ الأئمة، وَاَرْخَيْتَ دُونَها حِجابَ النُّبُوّةِ»[1]

إن من إبداعات الإمام الراحل قائد الأمة الخميني العظيم (قدس سره) أنه أطلق اسم يوم المرأة العالمي على يوم ولادة الزهراء (عليها السلام) إذ أن وجودها في عالم العصمة والطهارة والكمال والجلال لم يُبقِ شبهة ولا إشكالاً حول إمكانية نسبة

(١) إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس، ج ٣ ص ١٦٦

مراتب الكمال للمرأة.

ثم إن حضورها (عليها السلام) وتجليها في عالم الدنيا يسقط كل الذرائع والحجج والأوهام والشبهات حول المرأة، والتي جاءت من تحريفات الديانات السابقة. فإذا قرأنا قصة خلق حواء والسكن في الجنة والخروج منها والنزول الى الأرض في التوراة والانجيل سنرى أنها تُصور شيطاناً بصورة امرأة، ولو لم يظهر الإسلام عظمة ومقام مريم ابنة عمران وآسيا زوجة فرعون وبقينا على الموروث من الكتب المنسوبة لبقية الديانات لبقيت صورة المرأة مشوهة ومشوشة.[1] أما بناءً على هذا اليقين العقائدي بمقام الزهراء (عليها السلام) التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها فلم يبق في يد الباحث والمحقق إلا التسليم بالمنزلة العالية التي يمكن أن تحصل عليها المرأة إذا ترقت في سلم الكمال.

إن يوم ميلاد الزهراء (عليها السلام) هو يوم المرأة بحق، لا المرأة المسلمة فقط – وإن كانت للمرأة المؤمنة من جهة عملية النصيب الأكبر – فبولادتها (عليها السلام) انتقض ما تركه التاريخ من جهالات علمية وعملية في شأن المرأة، بل حُلّ ما سوف تولّده الجاهلية عبر الأجيال من تساؤلات.

الزهراء والملكوت

إن كل ما ورد حول الزهراء (عليها السلام) في تراثنا الديني شاهدٌ على عظيم منزلتها. ومن الجدير بنا أن نتأمل فيما ترشّح عنها من أقوال و أفعال وسلوك لكونه دليلاً قاطعاً على سعة أبعادها الوجودية، وعظمتها المطلقة، وأنّى لأذهاننا أن تتصور امرأة يرضى الله لرضاها ويسخط لسخطها؟!.

(١) جاء في التوراة (سفر التكوين، الإصحاح ٣ – الآيات ٦–٧ و١٦) أن على المرأة أن تعاقب طوال عمرها للذنب الذي ارتكبته في الجنة وإخراجها آدم منها. وما الحمل والولادة إلا جزء من هذه العقوبة: «وقال للمرأة تكثيراً أُكَثِّرُ أتعابَ حبلك بالوجع، تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك».

فهي التي نوجه لها السلام بقولنا: (السلام عليك يا ممتحنة امتحنك الله الذي خلقك قبل أن يخلقك)[1] فقد امتحن الله قلبها للتقوى في أعلى مراتب عالم الإمكان. يقول الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾[2] وللنجاح في الامتحانات الإلهية أثران أساسيان:

الأثر الأول: أن النجاح والفوز والفلاح في البلاء الإلهي يجعل الإنسان يرى ملكوت السماوات والأرض، يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[3] هذه المرتبة التي هي رؤية الملكوت وانكشافه نالها إبراهيم (عليه السلام) بعد أن صبر على الامتحانات الإلهية.

الأثر الثاني: أن النجاح في البلاء الإلهي يعطي الإنسان القدرة على تجسيد وإظهار آثار عالم الملكوت للخلق في عالم الحس متى رأى موجباً لذلك، كما لو توقفت عليه هداية الناس وتعليمهم، وهذا هو معنى الكرامات ومبرر صدورها عن الأولياء.

لقد نالت الزهراء (عليها السلام) أعلى درجات الاتصال بعالم الملكوت، ولذلك أدلة حسية. فقد أكدت الروايات على أنها محدَّثة تحدثها الملائكة[4] ويراودها جبرائيل (عليه السلام)، وكان لهذا الاتصال بعالم الملك الأثر الظاهر والمستند الواضح عند أئمة أهل البيت (عليهم السلام). وإن مصحف فاطمة (عليها السلام) الذي يرجع إليه الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ويستندون إليه في تثبيت الأحكام الإلهية لهو الدليل الحسي على شدة ارتباطها بعالم الملكوت، وقدرتها على تجسيد وإظهار آثار هذا العالم

---

(١) زيارة الزهراء (عليها السلام)، مفاتيح الجنان.

(٢) الحجرات/ ٣

(٣) الانعام/ ٧٥

(٤) عن إسحاق بن جعفر بن محمد بن عيسى بن زيد بن علي قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «إنما سميت فاطمة محدثة، لأن الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها كما تنادي مريم بنت عمران فتقول: يا فاطمة (إن الله اصفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) يا فاطمة اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) فتحدثهم ويحدثونها...» علل الشرائع، ج ١ ص ١٨٢

إلى عالم الحس، ولذلك كان هذا المصحف النوراني عند الأئمة يتوارثونه ولياً بعد ولي.[1]

وأما بالنسبة للأمة، فقد كانت خطبتها الغراء هو مصحفها الذي تلت فيه نفسها، وأنشأت فيه ولايتها، وأزاحت الستار عن ملكوتها، حتى أوصلت المسلمين إلى حدٍ يلامسون فيه ولايتها ملامسة الحس، فلم يسمعوا منها إلا منطق النبوة. وقد أحيت صوت الرسالة المحمدية العظمى، فما يسع سامعها إلا أن يقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾.[2]

ويمكن أن نقول أن الزهراء (عليها السلام) قد أسمعت المسلمين يوم ذاك صوت جبرئيل الذي يحدثها وتحدثه حتى هيمنت على قلوبهم بشكلٍ كامل، ولولا قضاءً سبق في علم الله لرأوا بعثةً ثانيةً تشبه إلى حدٍ بعيد المبعث النبوي.

كان الزمان أحلك الأزمنة، ففيه وقعت أصعب الظروف، وأشد الوقائع التي مرت على المسلمين عامة وعليها (عليها السلام) بنحو خاص من فقد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وغصب الوصي (عليه السلام).

وكان المكان المسجد النبوي الذي تحكي كل جنباته الوجود الروحي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). وكانت فيه قائمة بعمل عبادي، ولذا كانت تقول: «وَلا أقُولُ ما أقُولُ غَلَطاً، وَلا أفْعَلُ ما أفْعَلُ شَطَطاً» وكل شؤونها عبادة، بل ربما كانت تقوم بأفضل عباداتها التي هي التعليم والهداية والإرشاد. لذا لم تتحدث عن فدك فقط؛ بل كانت المادة الأكثر من حديثها غير فدك، وبما أنها تقوم بعمل عبادي فلا شك أن لخطبتها – كما هي كل العبادات – ظاهر

(١) عن الإمام الصادق (عليه السلام): «وإن عندنا لمصحف فاطمة (عليها السلام) وما يدريهم ما مصحف فاطمة، مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد، إنما هو شيء أملاه الله و أوحى إليها» بصائر الدرجات، ص ١٥٢

(٢) النجم/ ٤

وباطن، ملك وملكوت، جسد وروح، وهي التي يغلب الملكوت في عباداتها.[1]

وللسيدة الزهراء (عليها السلام) أغراض عدة من تحديد الزمان والمكان، ولعل من أهمها الاستفادة من كل أسباب التأثير لتحقيق الهداية والتوجيه والتعليم والتربية، وكل ما يتناسب وشؤون الولاية العظمى المادية والمعنوية التي مرت عليها.

لنتوقف عند بداية خطبتها (عليها السلام) ولنقرأها بعمق:

لقد ابتدأت (عليها السلام) بالحمد والشكر والثناء فقالت: «الْحَمْدُ للهِ عَلى ما أنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ، وَالثّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغِ آلاءٍ أسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، جَمّ عَنِ الإِحْصاءِ عدَدُها، وَنأى عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها..» وفي هذه الجمل من النكات العرفانية والعلمية والبلاغية ما لا يخفى على أهل الاختصاص، إذ ذكرَتْ لكل واحدٍ منها متعلق. فالإنعام: هو ما يوجب الحمد بشكلٍ عام، والإلهام: هو العطية الباطنية الخاصة فيوجب الشكر بشكلٍ خاص. والثناء: يكون لسوابغ النعم المتكررة لحظةٍ بلحظة. وكل هذه (الحمد والشكر والثناء) إنما تجتمع لمن لامس بحسه الروحي سريان اللطف والجمال الإلهي، فكلها حالات روحية، وإذا اجتمعت في قلبٍ قد تصورها وعايشها وعرفها

---

(١) عن أبان بن تغلب قال: قلت: لأبي عبد الله (عليه السلام) يا بن رسول الله لِمَ سمّيت الزهراء (عليها السلام) زهراء؟ فقال: «لأنها تزهر لأمير المؤمنين (عليه السلام) في النهار ثلاث مرات بالنور، كان يزهر نور وجهها صلاة الغداة والناس في فرشهم فيدخل بياض ذلك النور إلى حجراتهم بالمدينة فتبيض حيطانهم فيعجبون من ذلك فيأتون النبي (صلى الله عليه وآله) فيسألونه عمّا رأوا فيرسلهم إلى منزل فاطمة (عليها السلام) فيأتون منزلها فيرونها قاعدة في محرابها تصلّي والنور يسطع من محرابها من وجهها فيعلمون أنّ الذي رأوه كان من نور فاطمة، فإذا نصف النهار وترتبت للصلاة زهر وجهها (عليها السلام) بالصفرة فتدخل الصفرة حجرات الناس فتصفر ثيابهم وألوانهم فيأتون النبي (صلى الله عليه وآله) فيسألونه عمّا رأوا فيرسلهم إلى منزل فاطمة (عليها السلام) فيرونها قائمة في محرابها وقد زهر نور وجهها صلوات الله عليها، فإذا كان آخر النهار وغربت الشمس احمرّ وجه فاطمة (عليها السلام) فاشرق وجهها بالحمرة فرحاً وشكراً لله عزّ وجلّ فكان يدخل حمرة وجهها حجرات القوم وتحمرّ حيطانهم فيعجبون من ذلك ويأتون النبي (صلى الله عليه وآله) ويسألونه عن ذلك، فيرسلهم إلى منزل فاطمة (عليها السلام) فيرونها جالسة تسبّح الله وتمجّده ونور وجهها يزهر بالحمرة فيعلمون أنّ الذي رأوا كان من نور وجه فاطمة (عليها السلام)، فلم يزل ذلك النور في وجهها حتى ولد الحسين (عليه السلام) فهو يتقلّب في وجوهنا إلى يوم القيامة في الأئمّة منّا أهل البيت إمام بعد إمام» علل الشرائع، ج١ ص ١٨٠

حق معرفتها، ظهرت عليه آثار خضوع القلب وخشوع الجوارح لتبرز حمداً وشكراً وثناءً.

من المعلوم أن عبادة الناس وشكرهم وثناءهم وحمدهم مختلف باختلاف معرفتهم ورضاهم عن الله، وبمعرفتنا للزهراء (عليها السلام) نعلم أنها تحمد الله وتشكره وتثني عليه حق حمده، بكل ما فيها من عبودية مطلقة. فمن يرى المواهب المادية والنعم الظاهرية ويتمتع بها ويعلم أنها نعمة من الله، يختلف تماماً عمن يرى باطن النعم ويتمتع بالمعارف والتجليات الإلهية، ويرفل بالإلهامات الخاصة، ويغرق في رحاب رب العالمين ومحضر القدس، ورضاه عن الله لا يوصف.

ولذا يقول بعض العرفاء أن في قولها (عليها السلام): «...وَالثّناءُ بِما قَدّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغ آلاءٍ أسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها..» إشارة منها إلى ما ترى من دوام الفيوضات الإلهية، لأنه في قولها معنى أنها لا ترى تكرراً في التجلي كما يقول الحكماء [1] وأن الموجودات والمخلوقات والأحداث وإن بدت غير مترابطة لمن يلحظ ظاهرها فقط، إلا أن حقيقة الأمر ليست كذلك؛ إذ أنها في نظام الملكوت مترابطة متصلة، فكل ما خلقه الله من نعم هي سابغة لا انفطار فيها.

فعالم الوجود على تنوعه واختلاف آثاره هو متوالٍ ويسير كله باتجاه هدف واحد ومقصود فارد. وإنما تعبر (عليها السلام) عن هذه الحقائق كما تراها، وكما هي منكشفة لها في وجهها الملكوتي. ولذا فإن هذا الحمد الذي جرى على لسانها هو مطابق لهذه الرؤية.

(١) «لا تكرار في التجلي وأن الله لا يتجلى في صورة مرتين فهو تعالى دائماً في التجلي بأسمائه الظاهرة كالرحمن والمبدئ وبأسمائه الباطنة كالمالك والقاهر والمعيد، والحقائق دائماً في الظهور والبطون فكل يوم هو في شأن من الجمال والظهور والجلال والبطون» الامام روح الله الموسوي الخميني (قدس سره) في تعليقه على مصباح الأنس ص ٣٠١

ومن الشواهد على ذلك حالها الذي لا يخفى على أحد عرفها، فلو أردنا أن نتأمل الظرف الروحي والاجتماعي الذي تلت فيه الزهراء (عليها السلام) هذه المحامد لعرفنا سر هذا الحمد، ولا يخفى على أحد أنها (عليها السلام) إذ ذاك كانت تعيش أصعب أيام عمرها، وأشق لحظات دهرها، وهي القائلة:

صبت على مصائب لو أنها ** صبت على الأيام صرن لياليا

ثم تقول: «جمّ عن الإحصاءِ عددُها» فإنها حمدت الله حق حمده كيفا لا كمّا، أما الحمد بالكيف، فهو متحقق منها بكل شؤونها، كما ورد في الدعاء «فأنت عندي محمود، وصنيعك عندي موجود، يحمدك سيدي نفسي وعقلي ولساني وشعري وبشري ولحمي ودمي ومخي وعصبي وعظامي، وما أقلت الأرض مني حمداً يكون مبلغاً رضاك، منجياً من سخطك»[1]، وأما عدد موارد الحمد فخارج عن قدرة الممكن، يقول تعالى: ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[2]

ولكن كيف نجمع بين حالها هذا من الحمد والثناء والشكر والامتنان والرضى؛ والحال أنها في ظرف لم تذق أنثى مرارته؟!

لا يمكن فهم ذلك إلا أن نقول أنها كانت ترى الوجه الغيبي الملكوتي لكل ما يجري، وترى الخيوط الباطنية التي تربط بين الأحداث، وتعلم أن نعمة الهداية والإرشاد والايصال الى مرضاة الله لا تمر إلا عبر آلامها، فقد وجدها الله سبحانه لما امتحنها صابرة (فوجدك لما امتحنك صابرة).

لقد كانت ترى باطن هذه الأحداث، وترى أن التدبير لنظام الهداية لا يقل حكمة وروعة عن النظام الظاهري للخلق، ولقد تجلى ذلك في حمدها.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٢ ص ٤٢٣

(٢) النحل/ ١٨

وقد رأى وسمع المسلمون منها حمداً لا يشابهه إلا حمد رسول الله (ﷺ) يسري من القلب والجوانح إلى الجوارح. ومن أعماق النفس إلى اللسان، ورأوا أنها فاطمة بنت محمد الرسول الذي أدى الرسالة صادعاً بالنذارة بحق، وليست ابنة تنسب له عنصرياً فحسب.

فما أن قالت: «اعْلَمُوا أنِّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحمَّدٌ» إلا وقد أحيت جميع مآثر النبوة وأحضرت آثار الرسالة وعلامات الولاية الإلهية. وأنى يكون لهم أن يروا أو يسمعوا هذه المعاني وهذه الحقائق لولا أنها تلطفت بهم وكشفت عنهم حجاب الغفلة، فكان ذلك كالتيار الروحي الذي يهز القلوب وتستسلم له العقول.

الزهراء (عليها السلام) موجود عالم الملكوت (٢ - ٢)

حينما نحلل وبنظرة إجمالية حركة الزهراء (عليها السلام) لا نجد أبلغ من القول بأنها أشبه ما تكون بحركة ليلة القدر التي تحدد المقادير، وتغير مصير الموجودات كلها بما فيها الإنسان.

لقد غيرت حركة الزهراء (عليها السلام) مصير الأمة من الضلال المطلق والانقلاب التام والرجوع على الأعقاب؛ إلى فتح باب لتدارك ما يمكن أن يتدارك من الأمر، ولإعادة العجلة إلى الجادة، أو على الأقل حفظ ما يمكن أن يحفظ من الدين، كعقيدة وشريعة ومنهاج حياة. وهذا العمل يحتاج في تلك الفترة بالذات – والناس حديثو عهد بالإسلام – إلى عنصر من عناصر النبوة وبقية من الاتصال بالوحي، وحبل مرتبط بحديث السماء، فكانت الزهراء (عليها السلام) بضعة خاتم الرسل، وبقية النبوة المحمدية هي من تحملت هذه المسؤولية.

واسم (بقية النبوة) هو الاسم الذي يناديها به الأمير (عليه السلام) بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورحيله من هذه الدنيا. ويقول بعض العرفاء أن علياً (عليه السلام) إنما كان يناديها بهذا النداء لما يرى من اتصالها الوثيق بعالم الغيب ومحادثتها لجبرائيل. وهذا الاتصال هو الذي أعطاها القدرة على تغيير المصير المقدور للأمة بعد أن اختارت الأمة لنفسها أن تسير إلى الهاوية.

وتطالعنا في خطبة الزهراء (عليها السلام) أمور شتى، لعل من أهمها أنها ذهبت لتطالب بقضية شخصية حسب الظاهر (فدك) ولكنها اختارت مكاناً يجتمع فيه الناس، ثم وجهت خطابها لهم عامة وليس للطرف الذي تدعي عليه الغصب، بل ادعت أموراً هي متن الرسالة المحمدية، وأقامت الحجج على أهم الأصول العقائدية والفكرية والفقهية والثقافية والسياسية.

ويمكننا أن ندّعي أنه لولا أن الزهراء (عليها السلام) ثبّتت محورية التوحيد والرسالة

والولاية لم يبق من الإسلام أثر ولا خبر. كما أنه وبملاحظة خاطفة لمحتوى الخطبة يتأكد لنا أنها أقامت في ذلك المجلس نفسها كحجة لله كاملة، واستطاعت بهذا أن تريهم عصمتها الكاملة.

معنى شهادة الزهراء (عليها السلام)

مما قالت (عليها السلام) في خطبتها: «...وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإِخْلاصَ تَأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ في الْفِكَرِ مَعْقُولَها...» ولكن أي نحو من الشهادة هذه؟

إننا بضميمة الآيات القرآنية نعلم أن شهادتها على وحدانية الله تختلف جوهرياً عن شهادة عامة المسلمين، إذ أن القرآن يعلمنا أن شهادة أولي العلم تختلف تماماً عن شهادة الناس، يقول تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾[1] يقول أستاذنا الجوادي الآملي في شرح الآية أن الشهادة أنواع: لفظية وعلمية وذاتية. اللفظية تعني الشهادة بالألفاظ على الوحدانية، كقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[2]. أما العلمية فهي نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[3]، فقد أُخذ في هذه الشهادة مفهوم وحدة العالم وانسجام نظامه – والذي هو فعل الله – دليلاً على وحدانية الله سبحانه. أما الذاتية فهي نحو أرقى من الشهادة، وهي شهادة الذات ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ أي أن ذاته شاهدة على وحدانيته.

وشهادة أولي العلم – وهم من رسخ العلم فيهم وليس من عندهم العلم

(١) آل عمران/ ١٨
(٢) محمد/ ١٩
(٣) الأنبياء/ ٢٢

فقط – على وحدانية الله لا تنحصر في الشهادة اللفظية أو العلمية المتمثلة في إقامة البراهين على وحدانية الله؛ بل إنهم قد شهدوا بوحدانية الله قبل أن يكون هناك أرض وسماء ونظام، لأن ذواتهم شهدت بالله، وشهادة الزهراء (عليها السلام) هي من هذا النوع من الشهادة.

والمقصود أن ذوات أولي العلم تشهد بالوحدانية، هو تماماً كما أن الكفار تشهد ذواتهم على كفرهم ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾[1] فإن أولي العلم كذلك بتمحض ذواتهم في العبودية يشهدون بالألوهية. ويعبر عن ذلك قول الإمام الحسين (عليه السلام) في دعاء عرفة: «أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك!!»، وقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في دعاء الصباح: «يا من دلّ على ذاته بذاته».

أما الآيات والأدلة والبراهين التي تدل على وحدانية الله بالنسبة لنا هي بالنسبة لهؤلاء طرق ضيقة ومرايا محدودة كما يعكس أحدنا صورة محيط مترامي الأطراف في مرآة صغيرة، فإن ما يملأ المرآة ليس إلا مقداراً قليلاً من ماء المحيط، لذلك فإن الموجودات كلها على سعتها وتعددها وتنوعها وتكثرها بالنسبة لهؤلاء ماهي إلا آيات محدودة، فليس هناك مرآة أوسع من ذواتهم، ولا آية أكبر منهم.[2]

إذن، فشهادة الزهراء (عليها السلام) بالوحدانية تتناسب ومقام عبوديتها المطلق لله. جاء في كتاب فاطمة بهجة قلب المصطفى[3] أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لفاطمة: «شق الله لك يا فاطمة اسم من أسمائه فهو الفاطر وأنت فاطمة». إن هذا الاشتقاق هو الذي جعل جوهر ذاتها يشهد بالوحدانية.

---

(١) التوبة/ ١٧

(٢) عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام)، في قوله: «عمّ يتساءلون..»، قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «ما لله نبأ أعظم منّي وما لله آية أكبر منّي». تفسير القمي، ج ٢ ص ٤١٠

(٣) ص ١٤٨

ثم قالت(ﷺ) تفصيلاً بحقيقة هذه الشهادة وتحديداً لمعالم السير والسلوك إلى وحدانية الله:

١. جعل الإخلاص تأويلها.

٢. وضمن القلوب موصولها.

٣. وأنار في التفكر معقولها.

سنتناول بيان هذه العبارات الثلاث بالعكس لأن الزهراء (ﷺ) بدأت بالتسلسل المعصومي، ولنفهم ذلك دعونا نتناول العبارات بالشرح:

«وأنار في التفكر معقولها»

وقد بدأنا من هنا لأن التفكر بالنسبة للإنسان العادي يعد هو الخطوة الأولى للمعرفة، فهو يعرف الحقيقة أولاً عن طريق التعلم والحواس الظاهرية، وقد يفهمها وقد لا يفهمها، ثم قد تنزل إلى ساحة القلب وقد لا تنزل. فالاتصال بعالم التوحيد بالنسبة للإنسان هو أن يسمع ويقرأ ويتعلم البراهين والأدلة على وحدانية الله. فالتفكر والرياضات العقلية هو طريق العقل لاكتشاف هذه الحقيقة والتنور هو محصول المعرفة.

بخلاف المعصوم الذي يتصل بالحقيقة أولا، ثم يجدها حاضرة في قلبه، ثم يدركها بعقله، ثم يسمعها من لسان الوحي. لأن السير المعرفي عند المعصوم هو عكس السير عند الإنسان العادي، لأن المعصوم يتصل بعالم الواقع أولا، ولذا بدأت (ﷺ) – كما قلنا – بالطريق المعصومي.

«وضمّن القلوب موصولها»

إذا اتضحت الحقيقة للعقل فإنها تنير فضاءه وتفيض عليه الكاشفية، ولكنها ليست إلا مقدمة ولازم ضروري للوصول إلى حركة القلب. ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «العِلْم نورٌ وضياءٌ يَقذِفُهُ اللهُ في قُلوبِ أولِيائِهِ»[1] إن العلم مقدمة لانكشاف الحقائق فإذا قُذف العلم في القلب حصلت الهداية. ولكن العقل ليس هو الوعاء الذي يحمل كلمة التوحيد، ولا هو القادر على الإحاطة بها، إذ أنه من طبيعة الأمور المجردة أنها تحتاج إلى حفظ وتثبيت في وعاء يشبهها في التجرد، لتبقى حاضرة بشكل دائم، وهذا لا يسعه إلا القلب. وهو ما عنته الزهراء (عليها السلام) بقولها: «وضمّن القلوب موصولها»، والقلوب بالمعنى الدقيق هي العلاقات والروابط و ليست هي أوعية الاتصال فحسب، بل هي الاتصال عينه، فليست القلوب أواني تجمع المعارف والحب والبغض والقرب والبعد والانجذاب والنفور والاتصال والانفصال؛ بل القلب هو نفس الاتصال لاتحاد، وهو الواصل والصلة، وهنا تكون وظيفة القلب ورياضته، فهو الأوفى والأقدر والأوسع لتضمين كلمة التوحيد، وربما تساعد هذه المقولة على المعنى، ورد في الحديث القدسي: «ما وسعني عرشي ولا كرسيي ولا سمائي ولا أرضي ولا بري ولا بحري، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»[2]

«وجعل الاخلاص تأويلها»

وأما تأويل كلمة التوحيد فهو من أدق الأبحاث في المعارف الإلهية، ومن ألطف الأبحاث العرفانية وهو ما يسميه العرفاء بالتوحيد الشهودي، أو التوحيد الوجودي وعليه معترك الآراء.

---

(١) قرّة العيون للفيض الكاشاني، ص ٤٣٨

(٢) نور البراهين، السيد نعمة الله الجزائري، ج ٢ ص ١٧٢

ولبيان ذلك نحتاج إلى تعاضد علوم شتى لكي نصل إلى بعض معانيها، لكن يمكن أن نقول بشكل مختصر إن التأويل حقيقة لا تُنال بالعلم ولا بالتعلم، ولا بالعقل والتعقل، ولا يحمله لفظ، ولا يهتدى إليه بالكسب والبحث والتحقيق، ولا هو من المفاهيم أو المعاني، بل هو روح المفهوم والمعنى والصور العقلية التي تحكيها الألفاظ ولا يُنال إلا بطهارة خاصة. يقول أستاذنا الشيخ الجوادي الآملي (حفظه الله): «ليس التأويل من سنخ اللفظ ولا المفاهيم ولا المعاني، بل ارتباطه باللفظ كارتباط الحقيقة باللفظ، وهذا لا يساعد عليه أي نوع من أنواع الدلالات، ولا تعين عليه العلوم أيّاً كانت، وإنما هو من مختصات أهل بيت العصمة والطهارة»

إن تأويل القرآن هو عند بيت علي وفاطمة، – وهذا المضمون مما راج في عصر الإسلام الأول حتى غدا كالمسلمات – فمن يناقش الزهراء (عليها السلام) إن أوّلت كلمة التوحيد وهي العارفة بحقيقتها، وما يرون ويسمعون منها شاهد على ذلك؟! فهم (عليهم السلام) حملة التوحيد – وهذا هو مضمون المباهلة – فلو كان التوحيد الذي يجب أن يقابل به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المشركين هو توحيد باللفظ والدليل والبرهان والبينة؛ بل حتى بالسير والسلوك، لصح أن يدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في المباهلة صلحاء أصحابه وخيارهم، ولكن المباهلة كانت تتطلب توحيداً من درجة أخرى وهو عين ما تدعيه الزهراء (عليها السلام) هنا وهي مرتبة من التوحيد لا يشاركها فيها إلا علي والحسنان حينذاك.

وتأويل كلمة التوحيد في مرتبتها السامية تلك، والأثر المرجو منها هو الإِخلاص، فليس المراد هنا الإِخلاص في مقام العمل، أبدا، بل المراد هو الإِخلاص الذي تتضمنه سورة الإِخلاص التي لا تتحدث عن البرنامج العملي الذي تحكيه الآية ﴿وما أُمِرُوا إِلّا لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1] بل عن الإِخلاص في مقام التوحيد والألوهية ووحدانية الذات. وهذه المرتبة لا يدعي تأويلها إلا أهل بيت العصمة العلمية والعملية، من باهل بهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دون بقية المسلمين على اختلاف مقاماتهم.

---

(١) البينة/ ٥

سيادة المرأة الصالحة تعني سيادة المجتمع

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «فاطمة سيدة نساء العالمين»[1] هذه المقولة التي نحفظها جميعا نحتاج أن نقف عليها لنعربها على قلوبنا، فقد ورد عن الصادق (عليه السلام): «أعربوا كلامنا فإنّا قوم فصحاء»[2] فإنه بإعراب الكلام يظهر معناه ومحتواه.

وكمقدّمة نقول: إنّ الصلاح والفساد في كلّ المعمورة هو سيادة امرأة في عالم النساء، وإن كانت فاطمة (عليها السلام) سيّدة رجال العالمين أيضاً وحجّة عليهم. ولكن ربّما أنّ الرواية تتحدّث عن مسألة مهمّة وعميقة وحسّاسة، ولتوضيح ذلك نقول:

أوّلا: فساد فرد فاعل فساد للأرض

إنّ فساد الأرض وخرابها يمكن أن يكون منوطاً بفساد إنسان واحد إذا كان له دور فعّال ومؤثّر. وقد نسب إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديثه وخطبه في حربه مع معاوية قوله: «سأجهد في أن أطهّر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس»[3]. وإن كان معاوية واحداً من الخلق، لكن القضاء عليه هو تطهير للأرض، وتنظيف للمعمورة وتصفية للبيئة والمناخ الإسلامي.

---

(١) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «فاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وإنها لتقوم في محرابها فيسلم عليها سبعون ألف ملك من المقربين، وينادونها بما نادت به الملائكة مريم فيقولون: «يا فاطمة إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ٤٩

(٢) الكافي، ج ١ ص ٥٢

(٣) نهج البلاغة، من كتاب الأمير إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة.

وكشاهد آخر في شقّ الصلاح نجد في عالمنا المعاصر سماحة الإمام الخميني الراحل (قدس سره) الذي صلحت الأرض بصلاحه، استفاد منه الجميع، كل بمقدار قربه منه، وصلح صلاحاً يتناسب واستفادته من مدرسته.

ثانيا: دور المرأة الفعال في سيادة المجتمعات

عالم اليوم يضجّ بالمفاسد الثقافيّة والاجتماعيّة والبيئيّة التي لا يرفدها مبنى عقلائي أو علميّ أو فكريّ أو عقائديّ ناضج، بل تعتمد على ثقافة التهييج والإثارة، والانفعالات السريعة والعجلة التي هي مهلكة للرجل والمرأة، لأنها تمنع وجود الجوّ الهادئ النظيف الذي يحتاجه الإنسان للتوغّل في العلوم والمعارف والقيم والثقافة الأصيلة، كما تعيق التربية الصالحة التي تحتاج إلى ثقافة إلهية بعيداً عن الثقافة التي يصنعها أصحاب السلطات وكبار رجالات الرأسماليّة الذين يسعون إلى تحويل المرأة إلى ألعوبة للحفاظ على مصالحهم الرخيصة.

إذ أنّ إشغال المرأة وإلهائها عن دورها الريادي الربانيّ، هو الضامن لبقاء المصالح والمنافع لأهل الدنيا، فعندما يتحكّم بالحركة الثقافيّة والإعلاميّة أولئك البعيدون عن الأمور الأخرويّة فإنّ العلوم ستكون بداية الهلاك. ولا نشكّ أنّ من أخطر الأسلحة في يد هؤلاء هي المرأة، ومن البلاهة بمكان أن نشكّ في تأثير دور المرأة في هذا العالم جملة وتفصيلا.

إن سيادة المرأة الصالحة تعني سيادة المجتمع. وبنفس هذا الاعتبار فإنّ سيادة المرأة الجاهلة والفارغة لها تأثير وفاعليّة في تسافل المجتمع وانحطاطه، ولهذا فإنّ فاطمة سيدة كلّ الوجود وبالخصوص النساء اللاتي منهنّ الخير يؤتى، وبهنّ التوفيق يرجى. فالفرد والحركة الفرديّة هي الأصيلة في الصلاح، لما للإنسان من قابليّة في اشتداد القوى والازدياد في عالم الفضيلة.

والقرآن يؤكّد على هذه الحقيقة، فيضرب المثل للذين آمنوا بالمرأة النموذج

كآسية، ومريم بنت عمران التي لها كمالات كثيرة، ولكن القرآن يؤكّد – من بين هذه الكمالات – على روح العفّة والحجاب ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾[1] لتتفرّغ المرأة لعبادة الله وطاعته وعرفانه. هذا الكمون والاحتجاب والبطون يضيف جمالاً على المرأة، وإنّما يؤكّد القرآن ذلك لبيان مبدأ السيادة وملاك السيادة التي ينصّ عليها القرآن.

وللعرفاء مقطوعات رائعة في الحديث عما يفعله احتجاب المحبوب وتستّره على قلب الحبيب، فالاحتجاب والحجاب صفة إلهيّة حبا الله بها المرأة، وهي من أسمائه جلّت قدرته وقد ورد في مقولة للإمام الكاظم (عليه السلام): «احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور»[2].

وبالإمكان مراجعة أشعار العرفاء عن نقاب المحبوب واختفاء جماله وتجلّي بهائه من وراء الحجب، فالحجب تزيد اشتعال قلب الواله الهائم إرادة ورغبة، أما البروز والظهور الخالي من المحتوى – خصوصاً ما لم يكن له دور إيجابيّ وفعّال ومفيد – فهو نوع سيادة وريادة ولكنّه غير مضمون العواقب، خصوصاً في المرأة لما في طبيعتها من سرعة الانفعال وعجلة اتخاذ القرار والتأثّر والتأثير، على الأخص في الشؤون الاجتماعيّة التي يكثر فيها الانزلاق.

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «خيار خصال النساء شرار خصال الرجال»[3] فالجبن مثلاً خصلة مذمومة في الرجل، ولكنه ليس مذموماً بالنسبة للمرأة، باعتباره يمنح المرأة مقداراً من التريّث والتأمّل والتراجع قبل اتخاذ القرار، بما يعدّل من طبيعتها الانفعاليّة والعاطفيّة. وعليه فإنّ سيادة المرأة في اعتدال صفاتها.

(١) مريم /١٧

(٢) الكافي، كتاب التوحيد.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم.

حين سئلت الزهراء (عليها السلام) عن ما هو خير للمرأة قالت: «خير للمرأة أن لا ترى الرجال ولا يراها الرجال»[1] إن عالمنا المادّيّ اليوم يصوّر لنا الإنسان السيّد بأنّه من يعتمد على القوى الجبّاريّة والسلطويّة وذلك لاختلال مفهوم السيادة، في الوقت الذي يؤكّد فيه القرآن على أنّ السيادة تعتمد على صفات اللطف والرحمة، وهو ما يحكيه بـ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[2] وفي وصف خصائص النبي يحيى (عليه السلام) السيد يقول: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾[3]، فإنّ الحنان هو ملاك السيادة؛ لأنّ سيادة الناس لا تكون إلّا بالرأفة والرحمة وبرّ الوالدين وصلة الرحم، بخلاف الجبّاريّة والقوّة السبعيّة، فإنّها تفرّق سواد الناس وتبعدهم ولا تجمعهم، فالسيادة ما هي إلّا قيادة سواد الناس نحو الفضيلة.

ومثله الحديث عن سيادة عيسى بن مريم (عليه السلام)، فالقرآن يتحدّث عنها بنفس اللحن والمعاني وبذات المضمون والملاك. يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[4] ولهذا نلاحظ أنّ من أوسع الديانات وأكثرها عدداً في عالمنا اليوم هي الديانة المسيحيّة، لأنّها تعتمد على حسّ العاطفة والقيم الأخلاقيّة، وهذا لسان تستجيب له كلّ الإنسانيّة.

ولذلك فإنّ آل محمّد (عليهم السلام) هم آل بيت الرحمة ومظهرها الكامل، ومن ذا يشك أنّه بالرحمة تقاد الأمم، وبالحلم يسود العاقل، وعلى الحنان والرحمة تجتمع النفوس؟! فما ساد عصيّ ولا جبّار ولا كانت لهم أهليّة ذلك يوما.

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ج ٣ ص ١١٩

(٢) آل عمران/ ٣٩

(٣) مريم/ ١٢، ١٣، ١٤

(٤) مريم/ ٣١، ٣٢

ولعلّ هذا ما يفسّر تسمية الصديقة الزهراء (عليها السلام) بـ(الحانية) التي تحنو على أبنائها وعلى شيعتها بل على كلّ البشر.

لو أتيح للمرأة ممارسة وظيفتها، والتفرغ لما خلقت له، فسوف تسود وترقى مراقي الريادة التي تتعطّش لها البشريّة اليوم. لكنّنا نجد خلاف ذلك، خصوصاً مع التطويع الخاطئ والتفعيل السيء للإنتاج البشري والتطور التكنولوجي الذي لم يكن في صالح المرأة على وجه الإطلاق، بل ربّما ما أراقته تلك التكنولوجيا من قيم جعلت ضررها أكثر من نفعها، كما ساعدت الحياة الحديثة بشكل عام على تفشّي كثير من الأخلاق التي هي في ضرر المرأة.

أو ليست الغيبة والثرثرة وضياع الوقت وقساوة القلوب والجرأة وقلّة الحياء والهتك هي أمور تنتشر وتستشري بسبب وجود وسائل التواصل بصورة أوسع وأسرع؟!

فيما سبق وقبل وجود هذه الوسائل، إذا أراد شخص أن يغتاب ويذكر مساوئ الآخرين فإنه يحتاج إلى جهد وعناء وسعي وإمكانيّات. أمّا الآن فقد تهيّأت الأسباب للوصول إلى المعاصي وعليه فإنّنا نحتاج إلى التحصّن، وأن نحصر أنفسنا عن هذا البلاء الذي يحيط بنا. فالسيادة في كثير من الأحيان بحاجة إلى أن نمسك ولا نفعل، يقول تعالى في وصف نبيه يحيى (عليه السلام): ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[1] فحصوراً تعني ممسكاً محاصراً نفسه عن الشهوات والرغبات ومهذّباً لنفسه، وبهذا تتحقّق السيادة الواقعيّة.

وللمرأة الاستعداد الكامل والحظّ الأوفر من التحصّن والتعفف، هذا من جهة ومن جهة أخرى فالمرأة تمتلك القلب الوفير الذي يمتلئ بالعاطفة

(١) آل عمران /٣٩

الصادقة والحنان بلا مقابل.

إذن فإنّ التعفّف والحنان هما من أهمّ عناصر السيادة. وما أحوجنا خصوصاً نحن معاشر النساء إلى عفّة الزهراء (عليها السلام) وحيائها وحنانها ومحبّتها، لنسود في مجتمعاتنا وأمتنا بالاقتداء بمن هي سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين.

المرأة مركز التغيير، والأم تصنع أمة

مما لا شك فيه أن المجتمع الإنساني مركب من أفراد لهم قدرات وإمكانيات شخصية جوارحية وجوانحية، وقوة المجتمع هي رهينة بقوتهم، كما أن ضعف أفراد المجتمع ينتهي إلى ضعف المجتمع وانحطاطه، ولذا فإن القرآن الكريم يؤكد على أن قوة المجتمع مرتكزة على أصالة الفرد من هذه الجهة، فقد جاء في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] بمعنى أن مصب تغيير المجتمع هو تغيير الفرد، لأن تغيير الإنسان يقاس بما له من قابلية باتجاه الحركة التكاملية فهو الأصل لهذا التغيير، وإن لم يكن في محيط يعينه على ذلك. فالإنسان له القدرة النفسانية والفعاليات الكمالية في تغيير نفسه؛ بل وما حوله من أسرته أو عشيرته؛ بل ربما مجتمعه، على الرغم من كونه فرداً واحداً.

وهذه المسألة ثابتة بنفس الاعتبار فيما لو كان الفرد إنساناً فاسداً، فإن العاصي المفسد يتمكن من الإفساد بما لا يخطر على بال أحد. فالصلاح والفساد في المجتمعات من نتاج الحركة الفردية، وعليه فقد حاول أمير المؤمنين (عليه السلام) تطهير الأرض ممن تسببوا في إهلاك الحرث والنسل وإفساد البيئة الاجتماعية.

وتتسع دائرة نتاج الإنسان بمقدار فعاليته في شِقّيْ السعادة والشقاء، فإذا كان الإنسان في ظروف ومحيط وملابسات تشجعه على الإفساد وتمكنه من الطغيان والفجور فإن أفعاله السيئة تصبح أشد أثراً وأعظم دائرة. فالإنسان يعمل على شاكلته، ويؤثر في محيطه الفردي والعائلي والاجتماعي ما استطاع ذلك.

(١) الرعد/ ١١

من المسلّم أن التغيير يوجد أولاً في ذات الإنسان بما أنه قابل للتربية والإرشاد وقادر على إتمام مسيرته الكمالية، حتى لو لم تكن الملابسات الثقافية والفكرية والاجتماعية معينة على هذا التحول. وتمثل هذا النموذج آسيا بنت مزاحم، فهي وإن كانت في بيت سوء، وعاشت مع أحد الفراعنة الذي وصل به الأمر إلى ادعاء الربوبية؛ إلا أنها مع ذلك أوجدت تغييراً في ذاتها الكريمة حتى رزقت الشهادة، وقد طلبت من الله بيتاً عنده في الجنة مقابل القصور الحسية حتى ضربها الله مثلاً فقال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [1]

لقد كان لآسيا بنت مزاحم دوراً إيجابياً في تغيير نفسها وإصلاح المجتمع، وكان لها القدرة على نقل المجتمع الفاسد إلى ضفة الصلاح والخير حتى بعد مرور الزمان وتغير المكان.

من هنا نحن بحاجة إلى أن نتعرف إلى العوامل الأصيلة الأولية في تكوين وتأسيس شاكلة الإنسان التي يعمل عليها في حياته.

عوامل تكوين شاكلة الإنسان

١- الأسرة: تعد الأسرة أول العوامل وأهمها في تكوين شاكلة الإنسان، فمنابت الصلاح والفساد لكل بني البشر تتكون بدايتها في المحيط الأسري، لأن أول مكان يتعلم منه الإنسان ويدرس فيه أوّليات العلوم هو أسرته. ولذلك يشير أمير المؤمنين (عليه السلام) فيقول: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر»[2]، ومعلوم أن دور الصغر والطفولة يُقضى في أحضان الأسرة، والأسرة هي التي تزرع أوليات العلوم التي لا تزول عن ذهن الإنسان وفكره ووجدانه

(١) التحريم/ ١١

(٢) نهج البلاغة.

أبداً، كالنقش الذي لا يعفي عليه الزمان ولا تمحوه التغيرات.

وفي هذا الجانب نقطة مهمة يجب التوجه إليها، وهي أن التعليم الذي يتلقاه الإنسان في محيط الأسرة بصورة عفوية يختلف عن مراكز التعليم والتربية الأكاديمية والرسمية، فالمتعلم – الذي هو الطفل هنا – يحاكي ما يتعلمه بأقواله وأفعاله، وهذا هو السر في تميز الأفراد على صعيد العقيدة والعمل، وهذا هو وجه التفاوت بين المراكز العلمية والأحضان الأسرية، خصوصاً أن نظام التعليم في عصرنا الحديث – وللأسف – يبنى على أساس هدم المميزات وتكوين النظام الموحد في الثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد. وعلى الرغم من انتشار هذه الفكرة وتصدي الوسائل الإعلامية العالمية الاستكبارية لترويجه، إلا أن هناك من يخرج من شرنقة هذا النظام إلى فضاء نظيف ومستقل، فالفتيان والفتيات المؤمنون الذين نشأوا في بيئة أسرية نظيفة قد حصنوا أنفسهم من هذه العولمة الغربية وأمواجها الفكرية والإعلامية التي تحاول أن تنشر نفوذها في المجتمعات.

نعم يكمن الفرق بين الأفراد في النظام الأسري الثقافي والديني، والذي يختلف من أسرة إلى أخرى، إذ أن لكل أسرة تركيبة بيولوجية وتربوية ودينية وثقافية مغايرة. هذا الفارق في النظام الأسري يشكل الوالدان العنصر الأساس فيه وهما القادران على حفظ هذا الاستقلال وصياغة البعد الديني والثقافي جيلاً بعد جيل.

٢– الأم: تعد الأم العامل الآخر المتفرد لتكوين شاكلة الإنسان ضمن نطاق الأسرة، ففاعلية الأم والزوجة متميزة عن فاعلية الرجل، فإلى جانب كل رجل هناك امرأة يسكن إليها ويستظل بفيئها، هذا السكن يربط الرجل بالمرأة برابطة قوية ومنها ينشأ مفهوم الأمومة، فمنذ نعومة أظفار الطفل، يجد نفسه متصلاً بامرأة – التي هي أمه – ويتدرب في ضمن إطار هذا الارتباط على تكوين الروابط الاجتماعية الواسعة.

لذا يمكننا القول أنّ الكون كله تحت إدارة الأمهات من جهة فكرية وتربوية، لأن الإنسان يتلقى العلوم الأولية في أحضان الأم قولاً وفعلاً وسلوكاً.

ومن هنا تنبثق مجموعة من الأسئلة المهمة منها:

ما مفهوم الأمومة في عصرنا هذا؟

وما هي الموانع الطارئة على تأدية هذا الدور المهم والمؤثر جداً؟

وما هي خصائص الأم التي تتمكن من تربية الأفراد بشكل صحيح ومطلوب؟

إن المراد من الأمومة ليس هو المعنى العرفي، بل إن الأمومة معنى واسع وعميق، إذ أن المرأة بعناصرها التكوينية وتأثير موقعها في عالمي الصلاح والفساد الاجتماعي؛ لها شأن تربوي أساسي بالقياس إلى جميع المجتمعات، ولذا أكد القرآن الكريم على وجود نساء كمثال وقدوة. والآية التي تتحدث عن آسيا بنت مزاحم تجعل المرأة كقدوة للمجتمع إذ قالت: (ضرب الله مثلا للذين آمنوا)، ونحن نستنبط من هذه الآيات أن المرأة إذا أحرزت خصلتين أساسيتين، تمكنت بهما من هداية الناس وإرشادهم إلى سبيل الصلاح وهما:

١ / الاستقلال في فكرها التوحيدي وعدم ذوبانها في المحيط الطاغي الذي حولها. وبهذا الاستقلال النظري تكون قد حققت الركيزة الأولى وملكت الرصيد الأساس في القدرة على هداية الناس.

٢ / الإيمان الذي يخالط لحمها ودمها، فالقرآن يمدح آسيا بنت مزاحم، والنبي (ﷺ) يمدح العجوز التي استدلت على التوحيد من تجربتها الشخصية. والعالم بكل ذراته يمدح فاطمة بنت محمد (ﷺ) التي إذا قامت عند الله بالعبادة زهرت الأرض والسماء واستبشرت ملائكة الله، إذ أن سعة دائرة عبادة فاطمة بنت محمد (ﷺ) يتمتع بها أهل السماوات كما أهل الأرضين.

المرأة في واقع اليوم

وعلى هذا فمن منا ينكر اليوم هذا الواقع المر الذي تعيشه المرأة، والعالم يدار من قبل الذين يتخذون سلوك المعصية نهجاً لحياتهم، ويسيئون الاستفادة من المرأة للوصول إلى مقاصدهم الباطلة؟

من منا ينكر دور الرجل المسبب لإثارة الفحشاء عبر استغلال المرأة؟!

إن الفحشاء التي تباشرها المرأة، إنما يخطط لها الذين يكنزون الذهب والفضة، فتزيين المعاصي وتزويقها وبهرجتها عبر الإنتاج العالمي للباس ومواد الزينة كله بيد الرجل، هذا الواقع يلوث الجو النظيف للفكر التوحيدي والعمل الإلهي؟!

في هذا المناخ الذي يديره الاستكبار العالمي أريدَ للمرأة أن تنشغل بالأمور التافهة وسفاسف الحياة التي تحولها إلى ألعوبة بيد الرجل، وتحول دون توغلها في المسائل الاجتماعية والثقافية والروحية. في حين أن منهج التوحيد يحث على الكدح والسعي والتوجه الحر والتخطيط للحياة المادية والمعنوية في ضمن السعي باتجاه التوحيد، بحيث يوجه الإنسان وجه معيشته المادية والمعنوية إلى صلاح الفكر والعمل. فالإنسان الموحِّد هو بصدد تقسيم حياته وأموره دائماً إلى الخير والشر، والبر والإثم، وهو يوجه عيشه إلى الخير والصلاح في الفكر والقول والعمل فلا يعيش الهوى، بل يعطف الهوى على الهدى ويبدأ بذاته أولاً ويصحح ميولاته وقدراته، فمعرفة المنزلقات ونقاط الضعف ليست بأقل أهمية من معرفة أسباب الهدى، فقد سئل أحد أعاظم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كيف وصلت لهذا المقام فقال: كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يسألونه عن البر فيأتون به، أما أنا فأسأله عن الإثم لأتجنبه.

إن توجيه الميول غير الصالحة بكل اقتدار وعطفها على الهدى هي ركيزة

صلاح الإنسان، ولهذا نرى أن المرأة المؤمنة – على الرغم من صخب هذا العالم الفاسد الذي يحيط بها والذي صنعه الغرب – قد حققت خطوات كبيرة في نشر الفكر التوحيدي في مختلف مجالات الحياة، ذلك لأنها أم المجتمع. فلو صممت المرأة على أن تأخذ السلوك الإلهي منهجاً ورضا الله طريقاً لحياتها، بحيث لا تخفي ولا تعلن إلا ما يرضي الله ولا تنطق ولا تسكت إلا بما يرضي الله، فسوف يقع العالم كله بطريق الهدى.

حياء المرأة ضمان استقرار المجتمع

لأن صلاح المرأة صلاح للمجتمع، يجدر بنا الإشارة إلى قيمتين أساسيتين سعى الغزو الثقافي الممنهج لتشويههما، وهما العفة والحياء.

الحياء سلوك نسوي خاص يعين على إكمال عيش المجتمع وضمان استقراره. بعبارة أخرى، المرأة بمعونة الحياء والعفة التي تترجم في حجابها، تعكس أثراً أساسياً على سلوكها وتصرف نظر الناس إلى فكرها واعتقادها وعلمها واختصاصها بدلاً عن جسدها وأنوثتها. ويمكننا القول أن النساء يملكن ميولهن وشهواتهن، ويملكن أيضاً ميول الرجال وشهواتهم، إذ أن إدارة الميول الجنسية والقوى الشهوانية للرجال مرهونة بعفة المرأة، فمتى ما عفّت النساء في المجتمع ضمرت فيه الشهوة والرذيلة.

ومن هنا يمكن القول إن العفة والحياء هما بمنزلة البرنامج النسوي للإصلاح الاجتماعي وتربية الأجيال، فبالعفة تُطوى مظاهر الفحشاء، إذ ستلبّى الشهوات عبر الزواج وتحمل المسؤوليات الأسرية، وسوف تصفو أذهان الناس من عوامل الانحراف باتجاه الشهوات، وهذا أفضل طرق صون القوى الإنسانية والطاقات الإلهية المودعة في الإنسان.

إن النظرية الإسلامية تعتبر المجتمع المتزكي النظيف هو المجتمع الراقي، وهذا يعني أن الرشد والكمال في الثقافة الإسلامية لا يكمن في الإمكانيات المادية فقط؛ بل يكمن أيضاً في الثقافة الدينية التي تهندس الاقتصاد والسياسة النظيفة.

ملخص كلامنا أن سلامة الثقافة الإنسانية بيد المرأة بما أنها هي الأم، أم الأسرة وأم المجتمع وأم القافلة البشرية.

الدور الحقيقي للمرأة

من المهم أن نلتفت إلى مسألة أساسية غفل عنها الحداثيون والتقليديون، وهي الدور الحقيقي للمرأة. فإن النساء غالباً بين التقليديين والحداثيين يتساءلن عن دورهن الحقيقي.

المهم هنا هو التأكيد والتركيز على أن المرأة قادرة على التأثير في دائرة واسعة معتمدة على الخصائص الباطنية الأنثوية المودعة فيها.

النساء في النظرة التقليدية يُتهمن بالضعف والنقص لكون العاطفة بعداً من أبعادهن، ولكن هذه النظرة تغفل عن أن هذه العاطفة هي الذخيرة المعنوية في المرأة، إذ أن العاطفة والإحساس من النعم والذخائر الإلهية النفسية والمعنوية والتي استهدف النظام الكوني والحكمة الربوبية بها تنظيم حياة هذا الكائن البشري.

اليوم تُطرح نظرية خاصة في الغرب تُسمى بـ (الأخلاق النسوية) أو (أخلاق الحضانة) والمراد من هذه المدرسة الأخلاقية إبقاء المرأة في مسيرتها الطبيعية التي تتناسب وخلْقها بحيث يصب ذلك في سلامة المجتمع وفلاحه، وهذه الفكرة وإن كانت إفراطية إلى حد ما؛ إلا أن الإسلام يؤمن بأصلها، ويرى أنه كما لا تقوم الحياة الأسرية إلا بالزوجية والأمومة والأبوة؛ فإن تلك المقومات

عينها هي ما تقوم عليها الحياة الاجتماعية.

وتوضيح ذلك هو أن الأساس في الأركان الثلاثة – أي الحياة الزوجية والأبوة والأمومة – هو البعد العاطفي وإبرازه بصورة متميزة عن العلاقات الاجتماعية الأخرى، فإن نظام الترابط الأسري والرحمي في حقيقته يختلف عن أي نظام آخر، وإدارة العلاقات الأسرية تختلف عن أي إدارة أخرى لأن لها طرقها الفطرية الخاصة.

بل حتى نظام الرئاسية والمرؤوسية داخل الأسرة أيضاً له طابعه الخاص الذي لا يحاكيه نظام أي مؤسسة اجتماعية أخرى، فإن كل ذي اقتدار وإمكانية وطاقة في الأسرة يجب عليه – في ظل الشريعة الإسلامية – أن يُعمل ويُبرز رئاسته ضمن الضوابط الأخلاقية الحسنة، فالرحمة والشفقة على الأقارب أعلى وأفضل، والإنفاق عليهم أولى وأكمل، والعفو عنهم أحق وأجدر، وحيث أن المرأة أقدر على الفعل والانفعال العاطفي، فهي الأقدر على إظهار الرأفة والرحمة لمكان طبيعتها الفطرية.

ثم إن المجتمع كثيراً ما يصبح في مورد الحاجة إلى إبراز العاطفة، فالإنفاق والإيثار والتفاني وبذل النفس والنفيس بحاجة إلى موجود أكثر إحساساً وأشد انبعاثا. بل كثيراً ما يكون المجتمع في تغيراته الأساسية وفي تحولاته وانقلاباته العميقة بحاجة إلى هذا الكنز والوديعة الفطرية، ولعل أحد أسباب انتصار الثورة الإسلامية – مع جميع الخطط والأساليب والخدع التي يحيكها العالم الغربي – مدانة لهذه العواطف الأمومية العميقة، فإن المواقف البطولية لكثير من الشباب والرجال هي من نتاج هذه العواطف الأمومية الصادقة.

هذه العواطف العميقة والعلاقات القوية التي تملكها المرأة لها بالغ الأثر في نجاح وفلاح المجتمعات البشرية، فالمرأة هي مركز التغيير، والأم تصنع أمة.

الموقف المثاليّ للمرأة الواعية

لا شكّ أن من أكبر موارد سقوط الإنسان وقوعه بين قطبي الإفراط والتفريط، بين التقصير والغلو. فالجاهل غير العالم لا يُرى إلا مفرطاً أو مفرّطاً كما جاء في الروايات، والقليل جدّاً من الناس هو من يهتدي إلى جادة الصواب، ويمتلك الاعتدال النفسي فضلاً عن الاعتدال العلمي.

إن أسباب الاعتدال عزيزة وباهظة الثمن، وتحتاج إلى سعة في الأفق وصفاء في الروح، وتوفيق الله ورعايته، فإن العصمة للمعصوم فقط.

وأحد موارد التطبيق للإفراط والتفريط هو دور المرأة في التصدّي للعمل الاجتماعي، وحجم وظيفتها ومكانها اللائق بها.

يقع البعض في الإفراط حين يهّمش ويلغي دور المرأة في عملية التعليم والتوعية والتربية الاجتماعية، بينما يؤكد الإسلام – الذي هو دين الشمولية لكلّ أبعاد الحياة – على أهمية الدور الريادي الفعال للمرأة في عملية التغيير الاجتماعّي.

لقد أخرجت هذه النظرة الأحادية القاصرة عنصراً أساسياً من عملية الإصلاح والتغيير حين أبعدت المرأة عن الميادين الأخلاقية والتربوية، وألحقت الضرر بالبنى التحتية والبيئية، وبالتركيبة النفسية الطبيعية للمجتمع الإيماني المسلم، وقلّصت حسّ التسامح والتراحم، ومراعاة الآداب والفنون الأخلاقية في الأقوال والأفعال.

الإسلام الذي يدعو لنظام متوازن شموليّ لا يلغي عنصر الأنوثة، لأنه عنصر يؤسّس العلاقات الإيمانية والاجتماعية على ركيزة الرأفة والمحبّة والحنان، لضمان حياة اجتماعية معتدلة، وبيئة نفسية سليمة.

إن المجتمع السليم هو الذي يكون مظهراً لـ «أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة»[1] ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2] ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3] ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[4] كما يكون مظهراً لـ «أشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة».

إن مقتضى الحكمة والعقل معرفة مواقع الرحمة، ومواضع النكال والانتقام، وملء هذه المواقع بعناصر مفيدة ومؤثرة.

قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام): «صف لنا العاقل فقال: هو الذي يضع الشيء مواضعه. قيل له: فصف لنا الجاهل قال: قد فعلت»[5]. فليس العقل هو أن تعرف الخير من الشرّ فقط، وإنما أن تعرف أين تضعه، وكيف، ومتى لكي تصيب الواقع، فهناك مواقع ليس للخير فيها تأثير، ولا للحكمة فيها منبت، ولا للإصلاح فيها أثر.

ولهذا نرى أن أقلّ المواجهات والصدامات شراسة وخسائر هي التي خاضها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم، وذلك لجلاء البعد الرحماني فيهم، واعتدال قواهم وعصمة نفوسهم. وللمرأة دور مهمّ في هذا البناء المنسجم المتماسك، ويفترض في المرأة التي تمارس الدور الاجتماعيّ أن تكون هي الأمان لحفظ هذه الروح الأمومية، والسعي لتأكيد جانب الرأفة والرحمة وعدم التجاوز، وذلك بتنشيط عناصر الأنوثة والجمال الروحي التي اقتضتها حكمة الخالق جلّ وعلا.

إن من التفريط تصوّر المرأة كائناً لا يمتلك القدرة على تشخيص الحقّ

---

(١) دعاء الافتتاح.
(٢) الفتح/ ٢٩
(٣) فصلت/ ٣٤
(٤) البقرة/ ٨٣
(٥) نهج البلاغة.

من الباطل، وجعل الوصاية للرجل عليها في تشخيص الأمور، ثم إخراجها بالكامل من عملية الإصلاح.

ومن الإفراط وضع المرأة في موقع لا يتناسب وطبيعتها، ما يجعلها في معرض الأخطاء، ويخضعها لتلاطمات روحية وعاطفية، وتجاذبات اجتماعية تفقد معها السيطرة وتستسلم فيها لنقاط الضعف. وذلك لأن أحد أهمّ الأسباب التي تُعرقل عملية الفهم والإدراك الصحيح هو الهيجان والانفعال والتأثّر العاطفي في مواجهة الأحداث.

إن الحساسية المفرطة والعاطفة الجياشة – التي هي من طبيعة المرأة – كثيراً ما تشكّل حجر عثرة تخلّ بالتوازن في قبال الصدامات الاجتماعية، فهناك علاقة وثيقة بين الخضوع للمؤثرات العاطفية، وبين عدم صدور التصرف العقلائي الحكيم، فالحُب يعمي ويصمّ، والبغض أيضاً كذلك.

ومن الإسراف إبراز هذه القوى العاطفية وصرفها في النزاعات الاجتماعية، ومن الإفراط إنزال المرأة في سوح معارك للقيم والمبادئ، التي لا تحسن المرأة إنقاذ نفسها من لهواتها. وحقّ هذه القوى الروحية المقدسة (العاطفة الأنثوية) أن توظّف في محلّها الصحيح.

يقول صاحب جامع السعادات[1] ما مضمونه: (المحبّة نار تحرق ما سوى المحبوب)، وللعرفاء كلمات كثيرة تفيد هذا المعنى أيضا. هذه القوى الروحيّة الربّانية النورانيّة (العاطفة الأنثوية) يمكن أن تكون الزاد في طريق العبادة والمناجاة، وطاعة الله، وإرساء القيم بحيث تؤتي ثمارها الروحية، فالمرأة بسبب هذه العاطفة، هي الأقدر على خرق حجب الظلمات والذنوب، وإزالة أوساخ النفوس وتطهير آثار الصراعات.

(١) هو الشيخ الجليل المولى محمد مهدي بن أبي ذر النراقي أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة، ومن أصحاب التأليفات القيمة.

أذكر معنىً لطيفاً لفتتني إليه ابنة أحد الشهداء، وزوجة شهيد أيضا، تقول: «كنت أفهم من قول الشاعر بن أبي ربيعة[1]:

كُتب القتل والقتال علينا *** وعلى الغانيات جرّ الذيولِ

أن الجهاد والبراز من شأن الرجال، أمّا المرأة فوظيفتها التستّر والحجاب فقط، لكن التجربة والحياة الاجتماعية كشفت لي معنى إضافياً آخر، وهو أن تحمّل آثار وأذيال وتبعات الصراعات الاجتماعية عبء يقع على عاتق المرأة، وكلّ خلاف وصراع مهما كانت طبيعته وحجمه له آثار وأذيال اجتماعية وأخلاقية وتربوية عميقة تبقى في النفوس والأرواح»

إنّ إعادة البناء الاجتماعيّ والفكريّ والأخلاقيّ والتربويّ مسؤولية كبيرة وثقيلة، والمرأة هي الأقدر على تضميد الجراح، وترميم النّقص، وجبر الخواطر، ولمّ الشعث، ورأب الصدع، وهي الأقوى والأكثر ميلاً للإصلاح الروحي.

تقول عائلة أحد الشهداء: «بعد شهادة السيّد الوالد قاطعَنا الناس، وأمعن المجتمع في ظلمنا، ومن أجل إصلاح هذا الأمر احتجنا إلى القيام بدور كبير، ليس بأيسر من البروز للميدان والتضحية بالنفس، وهذا الدور تمثّل في الجهاد التربويّ والروحيّ والثقافيّ».

هنا يتجلّى أحد أسرار الإبداع في خلقة المرأة، وهنا تكمن قوّة أنوثتها، لأن المحبّة والهيجان الروحّي والثورة العاطفيّة إذا جعلت زاداً إلى بلوغ المقامات

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وذلك أن مصعب بن الزبير بعد أن قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي دعا امرأته – وهي بنت النعمان بن بشير– إلى البراء من المختار، فأبت فقتلها، فقال في ذلك ابن أبي ربيعة:

إن من أعظم الكبائر عندي ... قتل حسناء غادة عطبول

قتلت باطلا على غير ذنب ... إن لله درها من قتيل

كتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

«والعطبول كعصفور: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق»

الإنسانية العالية، فستخلق النفوس المستعدّة لاحتضان الحقّ، وهي المؤمِّن الاجتماعّي للبنى التحتية للفضائل وحسن القول والفعل ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1]

إنّما تحدث الطامّة الكبرى حين تندفع المرأة للتصدّي إلى موقع يجب أن يشغله الرجل ويتحمّل عنها عواقبه وأعباءه وسلبياته، لأنها ريحانة وليست بقهرمانة كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «لَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ»[2]

إن طيب الرياحين يظهر حين تتعرّض للنسائم الهادئة العليلة، لكن حين تضع الرياحين في مواجهة الرياح العاتية والمصارعات الرجالية فلن تظهر خصوصيّتها من طيب وجمال، بل ستذبل وتموت. ونحن حين نعرّض المرأة لمثل هذه الأدوار الرجالية نلغي خصوصيّتها، ونستثني بعدها الأنثوي، ونتسبّب بإخراجها من الساحة الاجتماعية بسلبها أغلى ما لديها.

إن دفع المرأة لتنوب عن الرجال في مواضعهم يسلمها إلى نزاع روحيّ يشغل قلبها، ويحمّلها فوق طاقتها، وإن هذا – والله – إخراج لها عن دورها الريادّي، ومنع لها من ممارسة دورها الطبيعيّ ولكن بطريق آخر.

إن أكبر ظلم للمرأة هو توظيفها لأداء أدوار تغفل به خصوصيّتها الروحية، واستخدامها –من حيث تعلم أو لا تعلم– لإشباع الرغبات النفسية للرجل، ولإنجاح أغراضه الاجتماعية، حتّى لو كانت هذه الأغراض مقدّسة كالجهاد والقضاء والحكم والولايات.

(١) البقرة/ ٨٣

(٢) نهج البلاغة، والقهرمان هو المصارع.

الإسلام لم يحمّل المرأة تبعات المسؤولية الاجتماعية والواجبات الكفائية، خصوصاً في المواضع التي تترتّب عليها مشاكل اجتماعية كبرى.

هل عندنا في الإسلام أمر أهمّ من حفظ النفس الشريفة للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ ومع ذلك فقد نهى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نسيبة (أم عمارة) عن الهجوم للدفاع عنه، مع أنه لم يمر على الإسلام ظرف أشدّ من الأيام الأولى، مع ذلك ليس هناك مورد واحد يدعو فيه النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) النساء للقيام بدور الرجال في الجهاد، بل حتّى وظيفة الأمر بالمعروف والنهيّ عن المنكر إنما تجب عند الأمن من الضرر، ولا شكّ أن المرأة تتضرر روحيّاً ونفسيّاً واجتماعيّاً أكثر من الرجل، بل يؤمن كثير من مفكري الشيعة أن دور الزهراء (عليها السلام) كان دفاعيّاً ولم يكن دوراً هجوميّا، ولو كان هناك من يكفيها المؤونة ربّما لم يجب عليها التصدي.

كلّ ذلك لأن الإسلام أعطى المرأة حصانة قانونية إضافية، لضمان أكبر مقدار من حفظ كرامتها في كلّ الظروف، صيانة لها وحفاظاً عليها ورفعة لشأنها، وقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيّته لجيشه: «لا تهيّجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم فإنهن ضعاف القوى والنفوس»[1] وهذا طبع يغلب على النساء. وإن كان الكثير قد استفاد من هذا النص في تكريس النظرة السلبية لطبيعة المرأة في ظرف الصراعات؛ ولكنه في الواقع في خطابه الأولي يؤكّد على مفهوم قانون الحماية والصيانة للمرأة.

لا شّك أن أي خبير بالقضايا الاجتماعيّة يحكم أن الرجل الرشيد العاقل الحكيم غير المستبدّ برأيه هو أكثر صلاحية في حال الفوضى، والاضطرابات الاجتماعية التي تقتضي المصابرة والتصبّر، والسيطرة على المشاعر، وممارسة

(١) نهج البلاغة.

التدبير. وقد أفرط من أبرز المرأة كقهرمانة، خصوصاً مع وجود من يكفيها مؤونة هذا الدور، إذ أن أغلب التكاليف الاجتماعية كفائية، ومن صلاح حال المرأة أن لا تسلك طريقاً لا تأمن كلفته، فالمرأة التي ترعى وظيفتها تبقى محفوظة الكرامة، مصانة المكانة، ممنوعة الجانب.

حين تتكلم الرحى

ورد أن الزهراء (عليها السلام) طحنت بالرحى حتى مجلت يداها[1]

الحديث عن الرحى شيق وجميل وتأسيسي، ففضلاً عن ما يحكي في ظاهره من الزهد والجد والاجتهاد في قيام الزهراء (عليها السلام) بوظائفها الأمومية بأفضل وجه، هو أيضاً ذو بعد منهجي وتأصيلي سنشير إليه.

كمقدمة منهجية حول النظام الطبيعي للأسرة فإننا نرى بأن هناك هجوم عالمي لتحطيم البيئة الأسرية النظيفة. وتشعبات الحديث حول هذا الموضوع متنوعة وواسعة جدا، فالإسلام يعتمد نظام تحديد الأدوار والوظائف من خلال وضع قوانين وأحكام كثيرة واجبة ومستحبة ومكروهة بحيث تحفظ المناخ النظيف في الأسرة والمجتمع.

ولا يخفى علينا أن هناك حرب شمولية كونية شنت على الإسلام من كل جهة، لم تكن الأسرة بعيدة فيها عن ذلك، بل كان أشرس تلك المواجهات هو الحرب على الأسرة لضعضعة كيانها الفطري والطبيعي، وحل تركيبتها وتفتيت أجزائها وعزل كل عضو من محله؛ لتتحول الأسرة المسلمة إلى بدن مشوه غريب لا تنسجم عقائده مع سلوكياته ولا سلوكياته مع أخلاقه ولا أخلاقه مع مزاياه.

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق ص٨٣. ومجلت: يبست وصلبت وثَخُنَ جِلدُها وَتَعَجَّرَ وَظَهَرَ فيها ما يُشبهُ البَثَرَ من العملِ بالأشياءِ الصُّلبةِ الخَشِنة.

ومما لا شك فيه أن الحرب على هدم الكيان الأسري هو أشد من الحرب على الفرد، كما أن الأعداء يصلون إلى أهدافهم أسرع إذا عبثوا في توزيع أدوار الأسرة، فيكفي أن يزال عنصر واحد من دوره الأساس ويحل الآخر مكانه لتنحلّ الأسرة بشكل تلقائي، فهي كالبناء الذي يعتمد بعضه على بعض.

الأسرة تنوّع أدوار ووحدة هدف

إذا أردنا أن نعالج هذه المسألة ونصحح النظرة لدور كل من المرأة والرجل وفق المعايير الإسلامية، فإنه يجب – وفي المرحلة الأولى – أن نثبت أن هناك تنوع أدوار ووحدة هدف في عالم الأسرة. حيث أن الإسلام أعطى لكل فرد من الأسرة دوراً يتناسب مع هويته.

على سبيل المثال، الإنفاق واجب على الرجل، وهو مما تتحمله طبيعة بنيته البدنية والنفسية والروحية، وهذا الموقع يعطيه امتيازات معينة وحقوق معينة وموقع ومكانة تتناسب وطبيعته. وأما متابعة الجزئيات والتفاصيل الإدارية والتربوية فهي وظيفة للمرأة تتناسب مع ماهيتها وطبيعتها، وهذا مما يعطيها امتيازات كبيرة في داخل الأسرة، تتلائم مع وظيفتها وطبيعتها. وعليه فمن النتائج الطبيعية لهذا التفاوت في الوظائف بين الرجل والمرأة تَوَلّد امتيازات روحية ونفسية تنعكس على تناسق هذا البناء وهندسته بشكل طبيعي.

ولكن إذا افترضنا بأن المسألة أصبحت عكسية فمن نتائج ذلك أن يحدث تصادم في الامتيازات، فاذا كانت المرأة هي التي تنفق فمن الطبيعي أن يكون لها امتياز اتخاذ القرارات، وبالمثل، إذا كان الرجل يراقب ويتابع

الجزئيات والتفاصيل ستتمكن منه الملكات التي تتناسب مع هذا الدور، وهذا مما يؤدي إلى التفتت الداخلي لما له من أثر في العبث في أصول الفطرة عبر خلط الأدوار والمواقع.

نعم، لا مانع بأن يكون للمرأة وظيفة وعمل ونتاج اقتصادي، وهذا الموضوع يختلف عن كونها تتحمل مسؤولية المصرف أو القوامية المالية والإنفاق، لأن الإنفاق المالي يعطي للآخر درجة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[1] وهنا يجب أن نفرق بين أمرين هما: الإنفاق والمكنة المالية.

لقد حث الإسلام كلا الجنسين على الحصول على المكنة المالية، ولكن هذا عنوان يختلف عن عنوان تبادل الأدوار، لأن الدور يتناسب مع الفرد ماهويّاً، فالمرأة لأنها رقيقة ودقيقة فهي أقدر على إدراك الجزئيات، ومن ثم ترتيب ردة الفعل الحكيمة قبالها، ولكنها إن أُشغل ذهنها وعقلها وقلبها بوظيفة أخرى وكلفت ما لا تتحمل، فسوف تغفل وتقصر وتتكاسل عن دورها الأساسي وهو التربية، والتي تعد مسألة يحركها الوجدان الفطري بالبداهة.

فالأم بشكل بديهي تقوم بمراقبة الأطفال والأبناء بشكل تفصيلي، ولذلك كانت هي المخلوق الوحيد الذي يحسن تشخيص ما يريده الطفل، لأن إرادة الآخر ومعرفة ما يطلب مهارة خاصة تحدث بالممارسة والاحتكاك اليومي، وتتكون بالمراقبة والمتابعة الطبيعية، ولكننا إذا بدلنا الأدوار فستفقد الأم هذه المهارة، وبالنتيجة سنخسر امتيازاً واقعيا، ومن الطبيعي أنه ستختفي بذلك الكثير من معالم التربية، ومن أهمها ضعف التأثير؛ لأن القدرة على التأثير

(١) النساء/ ٣٤

تكمن في وجود امتيازات، فمن المعلوم أن لا يتأثر العالم بكلام الجاهل، ولا يطيع الحكيم من لا يرى له أي نوع من الامتياز عليه، بأي جهة كانت.

عطاء الأم لأبنائها تربية لهم

ما سبق هو جانب من جوانب النظرية الإسلامية التي نستفيدها من حديث الرحى، أما الجانب الآخر، فهو أثر عطاء الأم تربوياً على أبنائها.

فلو افترضنا بأن أسرة بأكملها في منتهى الرحمة والرفق والرقة والرأفة بالمؤمنين ولديهم مقدار عال من الإحساس، ويرون أمهم تقوم بالطحن بكل مقدماته الشاقة حتى تخشوشن يدها، لتحول هذه الحنطة إلى خبز لّين ليأكلوه هنيئاً مريئا، وتعمل ذلك بلا مقابل ولا منّة. ترى ماذا سيتعلم منها الأطفال؟!

خصوصاً إذا كانوا أرقّ شعورا، وأكثر فطنة في مراقبة فعلها، فمما لا شك أنها ستخلق في أعماقهم حس الإيثار، وقيم الفداء بلا مقابل.

وهل تحتاج الإنسانية اليوم إلى حسّ أهم من هذا الحس؟

ما أحوجنا اليوم لصوت الرحى التي تعلمنا آلاف المعاني بلا كلام، ونحن أحوج ما نكون إلى اشتعال حس الفداء للآخرين بلا مقابل ولا توقع جزاء ولا شكور. فلا يكبر الإنسان في الخارج حتى يكبر في ذاته ويلمس مشاعر كبيرة في ذاته، إذ أن لذة الإنفاق من أجل الآخر تجعل الإنسان يلمس إنسانيته ويدرك حقيقة ذاته.

حينما يرى الإنسان الحَبّ وهو حنطة غير قابل للمطعم ولا لسد الحاجة، ثم يرقبه بالتدريج كيف يتحول إلى وجود تستسيغه الذائقة وتطلبه، ويتساءل: هذا التحويل والتبديل، وهذا البذل لمصلحة من؟

هذا الأمر يدركه الإنسان في أعماقه ويلقى في اللا شعور معان عالية وراقية جدا.

إن ما نراه اليوم من كثرة الاستعانة بالطعام من خارج البيت لانشغال الأم بأمور أخرى؛ يجعلنا نخسر أموراً كثيرة في مجال التربية. نعم، لا مانع من أن يكون الطعام من خارج المنزل بين فينة وأخرى، فله آثار إيجابية منها إدخال البهجة على العائلة، لكن ذلك – ومع آثاره الإيجابية – لا يمكن أن يأخذ أثر الرحى وقدرتها على الفداء والإيثار.

ومع اختلاف الأزمنة وتغير الظروف، تتبدل الآلة من رحى إلى آلات أخرى، وهذا لا يعني انعدام الأثر، لأن المهم هو حفظ هذه الملكات والامتيازات التي يسعى أعداؤنا لسلبها منّا في حرب مخملية على البناء الأسري، والمراد منها تفكيك الأسرة في الأعماق. لذا ينبغي أن نتنبه لذلك، وأن نصغي لما تقوله الرحى.

أثـر تغيـر الزمـان والمـكان علـى الحكـم الفقهـي – أحـكام المـرأة نموذجـاً

لا شك أن لتغير الزمان والمكان أثر على الأحكام الشرعية عامة وعلى ما يتعلق بالمرأة ويهمها خاصة.

مبدئياً يجب أن نقول أن هذا الموضوع تخصصي جداً في موضوعه ومفرداته، وكثيرة هي التفاصيل المحيطة بالحكم الشرعي والتي يجب معرفتها من أجل الوقوف على الحكم، كطبيعة الحكم الشرعي وتقسيماته إلى حكم وضعي وتكليفي، ومعرفة ملاكات الأحكام وعللها وتبعية الأحكام لها، وتشخيص الأولية منها و الثانوية. كل تلك التفاصيل تتدخل في فهم هذا الموضوع، ووضوح انعكاس كل هذه المفردات على الأحكام الخاصة بالمرأة – بطبيعة الحال – لا يخلو من حاجة إلى معرفة بما تقدم. إلا أنني سأحاول جاهدة أن أبين الأبعاد الثقافية للموضوع – إن صح التعبير– وذلك بشكل مبسط.

مع أن البحث فقهي إلا أنه من الضروري استعراض بعض أطرافه الكلامية والعقائدية، لأنني أعتقد أن الشبهات التي تثار حول موضوع المرأة أغلبها وليدة الجهل بفلسفة تلك الأحكام ومبانيها العقلائية، أو قولوا هي وليدة نقص في زوايا المعرفة بالنظرية الكاملة لكثير من المسائل. لأن طبيعة الذهن البشري أنه حينما يسمع نظرية ناقصة المعالم فهو يحيطها بشبهات وتساؤلات تحتاج إلى أجوبة تكلف من الوقت والجهد أضعاف ما لو بذل ذلك الوقت والجهد لتحصيل النظرية كاملة بشكل صحيح، وقد جاء في

الرواية «العلم قطره كثّره الجهال»[1] كما أن النظرة الجزئية البتراء لبعض الأحكام الشرعية تؤدي إلى نفس المشكلة.

انطلاقاً من هذا الواقع أرى أن علينا بادئ الأمر أن نعالج بعض الشبهات حول بعض المسائل التي تبتلى بها المرأة المسلمة في حياتها الفردية والاجتماعية، ثم نعرض بعض المستجدات في فتاوى العلماء التي تتوافق مع ما يقتضيه تغير الزمان والمكان والتحولات الاجتماعية.

عليّ أن أشير قبل ذلك إلى أن سبب وجود هذه الشبهات في أذهان الكثير من المؤمنات ليس ناشئاً من عدم رغبتهن في الدين وعدائهن له، أو اتهامهن الدين بعدم القدرة على تلبية طموحاتهن، بقدر ما هو ناشئ من حرصهن وغيرتهن على دينهن من أن يُجعل في قفص الاتهام. ثم إن الاعتراض ليس منصباً على نفس الأحكام الشرعية بقدر ما هو اعتراض على الأساليب الخاطئة التي يفسر بها الدين.

سنتناول بعض المفردات الخاصة بالمرأة والتي تكتنفها الشبهات، ونقوم بتوضيحها وفق ما أسلفنا من منهج، منها القوامية، القضاء، تعدد الزوجات.

المرأة والقوامية:

أريد أن أدخل في هذه المفردة من باب جديد، وأبدأ بسؤال:

لو أن إنساناً يمتلك عناصر وراثية تجعله مؤهلاً لتحمل مسؤولية مضاعفة أكثر من غيره، ولو فرضنا أنه أيضاً على صعيد عملي يبذل وسعه في رفع المستوى المعيشي والاجتماعي والتربوي والإيماني لمن هم في عهدته، فهل يرفض العقل والمنطق أن يحمّل الآخرون مقداراً يسيراً من الطاعة والانقياد لبعض القرارات

(١) حقائق الإيمان، الشهيد الثاني، ص ١٦٧

التي يتخذها هذا الشخص ويرى فيها مصلحة ما؟!

والآن، لنقرأ الآية الكريمة في هذا السياق ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[1] ألا نجد أن ظلال ذلك المعنى تعطي الآية بعداً آخر؟

ما هي القوامية؟

القيّم: هو الذي يقوم بأمر غيره، والقوّام مبالغة منه. وهذه الجملة وإن كانت خبرية تخبرنا بأمر القوامة، إلا أنها كسائر آيات الأحكام والمقررات والحقوق قد سيقت بداعي الإنشاء وجعل القانون. وهي وإن كانت تتضمن الإشارة إلى وجوب الانقياد والطاعة من المرأة للرجل (في موارد خاصة) لكن الخطاب الأول هو للرجل نفسه، فهي تقرر أن مسؤولية القوامة داخل الأسرة – على أقل التقادير – هي للرجل.

والقوامة التي هي مبالغة في القيام بأمر شيء لا بد أن تكون لإصلاحه بلا شك لا لإفساد شأنه. والقوامة تنطوي على إلفات للرجل بأن يقوم بتلك المسؤولية بكل جدية ومبالغة، فتعبير (قوّام) يفيد التأكيد على النشاط الإداري والعمل الدؤوب المستمر لتأمين الرعاية اللازمة للأسرة، فإذا كانت الآية تعيّن القوامة داخل الأسرة، فهي في مرتبة سابقة تحمّل الرجل أيضاً تبعات هذه المسؤولية التي بعضها مالي وبعضها معنوي وشأني وبعضها اجتماعي، ومن هنا فالقوامية ليست صرف حق بل هي واجب ومسؤولية أولاً.

ومن المعلوم أن أي إداري سويّ لا يتسم بالفعلية والصدق في تحمل المسؤولية إذا تحول برنامج إدارته إلى تسلط واستبداد وظلم للآخرين، فمن الطبيعي أن ذلك سيخلق جوّ المعارضة، فهناك ارتباط قوي بين الاستبداد

(١) النساء/ ٣٤

ووجود المعارضة والنفور من الظلم في كل مكان، وفي الأسرة خاصة. وكل هذه المعاني هي مضمّنة في الآية، والقرآن يؤكد على قاعدة كلية في كل عمل اجتماعي مهما يكن حجمه فيقول: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾[1] فبالتعاون فقط وفقط يمكن إدارة الأمور غير الشخصية.

ثم إن الآية حددت علة القوامة قائلة: ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ وكما أشار الشهيد الثاني الشيخ زين الدين العاملي[2] في كتابه (آيات الأحكام)، وذهب إليه آية الله الجوادي الآملي فإن الآية لا تقول: (بما فضلوا عليهن) وإنما ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي أن هناك في صنف الرجال من هم أفضل من بعض النساء والعكس صحيح.

وربما يفيد هذا المعنى قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «لولا علي لما كان لفاطمة كفؤ»[3] فليس صنف الرجال جميعاً وعلى أي حال ودائماً هو أفضل من كل امرأة.

من جهة أخرى فإن القانون لا يضمن صحة تطبيقه وتنفيذه، وإذا حدث من قبل البعض سوء استفادة من القانون وخطأ في التطبيق فاللوم في ذلك يقع على المستغِل، وكل قانون – مهما كان – قابل للتلاعب والاستغلال وهذا أمر واضح.

ثم إن انتخاب الزوج أمر اختياري إلى حد بعيد، ولذا جاء في الشرع توصيات معينة للانتخاب الأفضل، فإذا أحرزت الأفضلية عند الرجل وإلا فقد اشتهر هذا القول عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «ابنتك كريمتك فانظر لمن ترقّها». فلو اجتمع في إنسان أفضلية واقعية وضم إلى جانبها سعياً حثيثاً ودؤوبا، وبذلاً مالياً وتأميناً للشأن الاجتماعي للآخر، فهل يرى المنطق السليم أن تقديم

---

(١) المائدة/ ٢

(٢) زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد بن جمال الدين بن تقي الدين بن مشرف العاملي، المعروف بالشهيد الثاني (٩١١هـ – ٩٦٥هـ) كان أول من صنّف في الدراية عند الشيعة، وأول من كتب الشرح المزجي في الفقه الشيعي أيضًا، وتمتاز مؤلفاته بدقّة النظر وعمق المعنى وجزالة التعبير وحسن الأسلوب، اغتاله أحد أزلام ملك الروم بوشايةٍ من قاضي مدينة صيدا.

(٣) أُصول الكافي، ج ١ ص ٤٦١

مقدار من الانقياد والاستسلام لإدارة ذلك الشخص أمر غير معقول؟! لا سيما والقرآن يؤكد على أن الوظيفة الأسرية لا تقتصر على البذل المالي فقط وإنما وظيفتها تأمين المستقبل الأخروي ورفع المستوى الروحي ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.[1]

المرأة ومنصب القضاء:

يعدّ القضاء نوع سلطة على الآخرين، وتدخل عملي في قضاياهم الخاصة، ولا شك أن لهذا المنصب دور كبير في الحفاظ على حقوق الناس وأموالهم ومصالحهم، فلا قوام لمجتمع ما، إلا بإجراء العدل فيه. والإسلام يعتبر الناس بالأصالة مسلطون على أنفسهم وأموالهم، من هنا فإثبات السلطة القضائية يحتاج إلى دليل لنرفع اليد عن هذا الأصل.

إذا حلّلنا عملية القضاء سنجد أن فيها عنصرين: عنصر نظري وعنصر عملي.

- العنصر النظري: يتمثل في القضية التي يراد القضاء فيها والرجوع في ذلك للفتوى والقوانين الشرعية، والمقارنة بين موضوع القضية والحادثة المختلف فيها ومقابلتها بالقوانين والفتاوى، والبحث عن جهات الانطباق فيما بينهما. وهذه المكنة النظرية تحتاج – علاوة على المعرفة والإحاطة بالفتوى الشرعية – إلى خبرة وتخصص في التطبيق على مورد الخلاف.

ثم إن مهمة القضاء لا تتوقف على ذلك فقط، ولو كان الأمر في القضاء هو الإفتاء بالحكم الشرعي وحسب لقلنا أنه لا مانع من أن تمتلك المرأة هذه القوة النظرية في دراسة الموضوع، وكذلك القدرة على اكتشاف وجه

(١) التحريم/ ٦

الانطباق مع الفتوى الشرعية. ولكن ليس هذا هو القضاء، فللقضاء بعد آخر هو البعد العملي.

● العنصر العملي: ويتمثل في إعلان الحكم والإلزام بتطبيقه، وهذا الأمر تترتب عليه تبعات اجتماعية واسعة. ففي كل عملية قضاء هناك طرفي نزاع، وبينهما خلاف مستحكم، هذا البعد الاجتماعي في عملية القضاء يعني فتح باب لنوع خاص من العلاقات والمسؤوليات والروابط الاجتماعية. وبشكل مختصر: القضاء ليس إلا الاحتكاك بالمجرمين والمعتدين والظالمين وسرّاق الحقوق، ومجازاة المخالفين ومختلسي الأموال، ومحاكمة ذوي الانحلال الأخلاقي، وأين المرأة والتصدي لهذه الأتعاب الروحية؟

إن طبيعة المرأة جبلت على الاهتمام بالآخر، وتحسس حاجاته، والرحمة بالمحتاج والمضطر، أو قولوا إن عنصر تجاوز الذات فيها قوي للغاية مما يجعلها تعيش هموم الآخرين بكل كيانها. ولا شك أن هذه الطبيعة ليس مكانها القضاء على المعتدي وتجريم الآخر وإنزال العقوبات الصارمة.

هذا علاوة على ما يحمّلها هذا المنصب من تبعات اجتماعية كثيراً ما تجعلها في موضع لوم الآخرين وتوقّعهم ورجائهم ومحاسبتهم، ولا أظن أنّ امرأة تتمنى لنفسها هذا الموقع إلا من كانت عديمة التجربة.

المرأة وتعدد الزوجات:

بالتحليل العلمي الدقيق نجد أن ما قام به الإسلام من تشريع حكيم في إباحة التزويج بالأربع هو تماماً عكس ما يُتهم به، فالكثير من الرجال يملك الاستعداد بأن يقترن بنساء كثيرات سواء من ناحية تكوينية أو مزاجية مذاقية، والتاريخ والتجربة بل والعلم شاهد على ذلك، فهذه طبيعة في تكوين الرجل.

كل ما في الأمر أن الإسلام جاء وحدد دائرة هذه الصلاحية وأجاز الاقتران

بأربع نساء لا أكثر، مع اشتراط العدالة الاجتماعية، وأدنى مطالعة في تاريخ الأمم والشعوب السابقة يجعل الأمر على عكس المشهور تماما، فالإسلام لم يطلق العنان للرجل في الاقتران بما شاء من النساء؛ بل قيّده بعدد محدد وبشروط معينة، والحق أن هذا القانون يستدعي أن يناقش فيه الرجال لا أن يعترض عليه النساء!

أحكام الشريعة صالحة لكل زمان ومكان:

بعد أن عرفنا فلسفة بعض الأحكام الفقهية وأدركنا أن الأحكام ذات مناشئ عقلائية، وهي ترمي إلى علاج مشكلة الفرد والمجتمع بنفس الدرجة، نستطيع القول أن هذه الشريعة التي بنيت على الفطرة السليمة هي الشريعة الخاتمة للشرائع، وأن «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة»[1]، ونحن نؤمن بـ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أن أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي أن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ أني أَخَافُ أن عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2] وبناءً على هذا سنبين كيف عالجت الشريعة ما استجدّ عبر تغيير الظروف وعبر التحولات التي تفرض نفسها في كل قرن بل في كل عام وكل يوم وآن، مع أنها نزلت قبل ما يتجاوز الألف عام في بيئة بدوية عشائرية محدودة الروابط ومغلقة إلى أبعد حدّ، ومع أن التطور والتحول والتبدل هو من المظاهر الكونية التي تعم كل الساحات الإنسانية سيما الاجتماعية منها. إلا أن الأحكام الشرعية قد أخذت في مواضيعها قواعد كلية تجعلها قابلة للانطباق مع ما يتناسب ومقتضيات كل عصر.

وبشكل موجز ومختصر نقول: يجب أن نفهم عبارة (أثر تغير الزمان

(١) بصائر الدرجات، ص ١٤٨

(٢) يونس/ ١٥

والمكان على الأحكام الشرعية) بشكل أكثر دقة لتكون : أثر تحولات العصر (الزمان والمكان) على فعلية الحكم الشرعي .

ما المراد بالزمان والمكان؟

لا شك أننا لا نقصد ظرفي الزمان والمكان . لأن الظرفين لا يتغيران . هذه الأربع والعشرون ساعة التي تمر علينا، هي نفسها تجري بنظامها على كل البلدان والعصور، وكذا نظام الأرض وفصول السنة كما أن حركة الأرض هي هي . إنما نقصد بالمتغير هنا هو مظروف الزمان والمكان، كالحضارات، والموضوعات الخارجية كالثقافات والأعراف، والمصالح والمفاسد، والأساليب والطرق .

ولنا أن نسأل : أين يقع التغيير والتحول بعد الاحتفاظ بالثابت من الأحكام؟

ونجيب : أنه يمكن أن نذكر هنا نوعين من التغيرات في أبسط صورهما :

١ . **التغير في مِلاكات الأحكام** : ومن الشواهد عليه ما كان من حرمة بيع الدم لانحصار المصلحة في المحرم، وكذلك حرمة قطع الأعضاء لانحصار ذلك في التشفّي، ولكننا نرى اليوم المصالح المترتبة على التبرع بالدم والأعضاء .

٢ . **التغير في أسلوب تطبيق الأحكام** : فهناك أحكام هي أهم المسائل ومع ذلك لم يحدد الشارع أسلوباً خاصاً لتطبيقها مع أهميتها . مثل : الدفاع عن بيضة الدين، نشر العلوم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حماية الحقوق عبر المحاكم . فلكل زمان ومكان أساليب تتناسب مع متغيراتهما لتطبيق الأحكام الشرعية .

فتاوى مستجدة في شأن المرأة:

الشيخ الجوادي الآملي (حفظه الله):

- يجوز للمرأة أن تتولى المرجعية للنساء.
- يقبل آية الله الجوادي النبوة الإنبائية للمرأة وإنما يختص الرجال بالنبوة التشريعية.
- تجوز إمامة المرأة للمرأة.
- كما يجب على الولد الأكبر قضاء الصلوات والصيام الفائت عن أبيه كذلك يجب القضاء عن الأم.

آية الله جناتي :[1]

- لا يشترط في مرجع التقليد أن يكون ذكراً.
- تتصدى المرأة الحائزة على الشروط لمنصب القضاء.
- مع مراعاة الحجاب الشرعي تشترك المرأة في صف الجامعة إلى جانب الرجل.
- لا مانع من تعلم المرأة السياقة من رجل (في نظره لا يحقق هذا خلوة محرمة).
- لا يشترط إذن الأب في زواج المدركة للمصلحة والمفسدة.
- يمكن أن يكون حق الطلاق بيد المرأة وذلك بجعله شرطاً في ضمن العقد.
- في حال العسر والحرج يمكن للمرأة إبطال مفعول العقد في مثل عدم أداء الزوج الحقوق الواجبة عليه، أو المعاشرة إلى حد يشق على الزوجة، أو كون الزوج مبتلى بأمراض عسيرة معدية.

(١) أحد العلماء البارزين في الجمهورية الإسلامية وعضو مجلس تشخيص مصلحة النظام.

● يمكن للمرأة وبدون علم الزوج الحيلولة دون الحمل، ولا يمكن له إجبارها على الحمل.

● إنما يلزم على المرأة أخذ الإذن للخروج من البيت إذا كان خروجها منافٍ لحق الزوج الخاص فقط وليس مطلقا.

آية الله هادي معرفت:[1]

● إن الآيات التي تتحدث عن ضرب المرأة وتأديبها منسوخة بالنسخ التمهيدي، فقد نسخها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بمرور الأيام.

● يرفض العلامة آية الله معرفة التفصيل المشهور بين الفقهاء في مسألة عيوب فسخ النكاح بين المرأة والرجل.

● يثبت حق الحضانة للأم سبع سنوات ولا فرق في ذلك بين الولد والبنت.

من هنا نجد أن كثيراً مما اشتهر على الألسن من فتاوى فقهية في شأن المرأة أخذت موقعها في الثقافة الدينية من سعة انتشارها وتكرارها، لا من جهة قوة أدلتها أو انحصار الأدلة فيها. ولايزال باب البحث والتحقيق والاجتهاد والنظر مفتوحاً إلى ظهور القائم (عليه السلام).

(١) محمد هادي بن علي بن الميرزا محمد علي معرفة (١٩٣٠ كربلاء – ٢٠٠٦ قم المقدّسة)، عالم ورجل دين من المسلمين الشيعة وبحاث في العلوم والبحوث القرآنية. مؤسس معهد التمهيد الثقافية، وسبق أن كان من أعضاء جماعة مدرّسي الحوزة العلمية في قم.

فقه المرأة – قراءة ومحاولات تجديد

جاء في الخبر عن الإمام الصادق (عليه السلام): «لوددت أنّ أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقّهوا»[1]

إن المراد بالفقه هنا المعنى الخاصّ الاصطلاحيّ، الذي هو قسم من العلوم الدينيّة التي تتخصّص في دراسة الموقف العمليّ تجاه الوقائع.

والفقه ما هو إلا محاولة بشريّة لفهم الشريعة، ولذا نحتاج لمعرفة ما يستبطنه لفظ (الشريعة) لتحديد موقعيّة المضاف إليه وعناصر الموضوع.

في اللغة الشريعة هي «مَشْرَعةُ الماء وهي مَوْرِدُ الشاربةِ التي يَشْرَعُها الناس فيشربون منها ويَسْتَقُونَ. والعرب لا تسميها شَريعةً حتى يكون الماء عِدًّا لا انقطاع له، ويكون ظاهراً مَعِيناً لا يُسْقى بالرِّشاءِ، وإذا كان من السماء والأَمطار فهو الكَرَعُ»[2]

من خلال التعريف السابق نستجلي الآتي من أجل الوصول إلى نتيجة:

١. الجنبة العمليّة والسلوكيّة هي الأظهر في التعريف، فالشريعة هي الطريق المسلوك الذي يشرعه الناس، والنهج المتّبع في سبيل الإرواء. إذن فالجانب العمليّ والسلوكيّ قيد فيها بخلاف الأمور الكليّة والتجريديّة والعقائديّة، ولذا ورد وجوب تقليد رأي الآخرين فيها.

٢. في الشريعة حيثيّة السهولة والسلاسة. فالشريعة ليست مطلق الطريق، وقد قال ابن سينا: «إنّ أسهل السقي الشريعة»[3] ولذا تلاحظون أنّ من أهمّ القواعد الفقهيّة هي نفي الحرج والضرر والضيق.

---

(١) الكافي، ج ١ ص ٣٣

(٢) لسان العرب لابن منظور.

(٣) كما جاء في لسان العرب: يقول العرب أهون السقي التشريع، أي أسهل السقاية للناس وللإبل هي عند وجود شريعة الماء الظاهرة التي لا انقطاع لها ولا حاجة لاستعمال اي أدوات للوصول إلى الماء.

٣. لفظ الشريعة يوحي بالظهور والعمق معاً بشكل واضح، أما الكراع فهو الماء النازل من السماء. وما لا يضرب في أعماق الأرض، أو لم يكن له عمق، وهو لا يسمّى شريعة، وكذلك الماء العميق غير الظاهر الذي يحتاج الدلو والرشاء[1] ليوصل إليه، فهو بئر لا شريعة؛ لذا كانت حجّيّة الظهور العرفيّ أوّل القواعد في أصول الفقه.

فالشريعة إذن – وفق التعريف اللغويّ – هي ماء معِين، وله عمق، وهذه الخصائص يفترض أن تكون موجودة في كلّ حكم فقهيّ شرعي، ونوجزها في:

١– تحديد الوظيفة العمليّة.

٢– اليسر والسهولة والخلوّ من الحرج النوعيّ والشخصيّ، فلا ضرر ولا ضرار فيه.

٣– الموافقة لقواعد الظهور العقلائيّة والعرفيّة السليمة.

ممّا لاشّك فيه أنّ زماننا الحالي يعدّ من أهمّ المراحل التاريخيّة التي نشط فيها البحث الفقهيّ حول الأحكام الشرعيّة بعد الصحوة الإسلاميّة، وخصوصاً بعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران وطرح الإمام الخمينيّ (قدس سره) مشروع إقامة الدولة الإسلاميّة، وربّما يعدّ تحقيق الثورة على يد مرجع إسلاميّ شيعيّ من أكبر النعم الإلهيّة، فأهمّ نقلة حقّقتها إقامة الدولة الإسلاميّة هي رفع مستوى التعامل مع الدين من شعارات إلى واقع حيّ. فقد كنّا قبل هذه التجربة ندّعي أنّ الإسلام دين الحياة، وأنّ الشريعة هي التي تأخذ بيد الإنسان إلى السعادة الكاملة. لكن كلّ نتاجنا الفكريّ حينها كان نتاجاً شعاراتيّا.

إن مرحلة الانتقال العمليّ للشريعة أضفت خصوبة وحيويّة ومرونة وسرعة وتوسّع في العمق والعرض للنتاج العلميّ والفتوائيّ، ولا أبالغ إذا قلت بأنّها في هذه السنوات الثلاثين قطعت أشواط مئات السنوات التي ما كانت لتقطعها

(١) الرشاء الحبل وجمعه أرشية.

لولا انتصار الثورة الإسلاميّة في بلد يتبنّى مراجعه وشعبه والقيّمون عليه هذا المذهب.

ومن المواضيع التي نالت الاهتمام البالغ لدى المسئولين والعلماء والحوزة والفقهاء والحقوقيّين والمفكّرين هو موضوع المرأة. موقعها، دورها، مكانتها في القرآن، حقوقها، وواجباتها حيث طرحت أفكار ونظريّات ودراسات قيّمة ومفيدة جداً وأحدثت وستحدث تغييرات أساسيّة في عالم المرأة.

ولكن كما أن عملية الاجتهاد مشدودة للأمام بسبب فتح باب المعارف كلّها على مصراعيها؛ ومع وجود الآيات التي تفيد في عملية الاستنباط، إلّا أنّها أيضا مشدودة من خلفها بحبال قويّة ومتينة ومحكمة تربطها بأحداث تاريخيّة وحمولات ربّما كانت سبباً في تأخير حركة التقدّم الفقهيّ أحيانا، ولكنّها لازالت صمّام أمان لضبط السير العلميّ بين الماضي والحاضر.

عناصر أثرت سلبا على البحث الفقهي في شأن المرأة

أشير هنا إلى عنصرين أساسيّين يؤخذان على منهج البحث الفقهيّ السابق كان لهما الأثر الكبير على المنهج بشكل عام، وعلى بعض الأبواب بشكل خاصّ، وسنركز في ذلك على موضوع المرأة.

العنصر الأول: ضيق تأثير البحث القرآنيّ في عمليّة الاستنباط:

يعلم جميع المسلمين – سيّما الخواصّ منهم – أنّ القرآن هو المصدر الأوّل للتشريع، ومنه يستمدّ الحديث الوارد عن المعصوم حجّيّته. وإنّما يصحّح العمل بالأخبار – مهما كان طريقها – موافقتها بالدرجة الأولى للقرآن وعدم مخالفتها له. هذا على المستوى النظريّ، وأمّا على المستوى العمليّ، فيكفي أن أنقل كلام صاحب الميزان السيد الطباطبائي (قدس سره) وهو ينتقد طريقة تدريس العلوم الدينيّة فيقول: «ذلك أنّك إن تبصّرت في أحد هذه العلوم

وجدت أنّها نظّمت تنظيماً لا حاجة لها إلى القرآن أصلاً حتى أنّه يمكن لمتعلّم أن يتعلّمها جميعاً فيأتي آخرها ثم يتضلع بها ثم يجتهد ويتمهر فيها وهو لم يقرأ القرآن »[1]

أريد أن أستفيد من هذه المقولة لأتحدّث عن كلّيّات ونظريّات وأصول قرآنيّة بخصوص المرأة، والتي لو كانت منطلقاً للبحث الفقهيّ لشكّلت خلفيّة قويّة وأعانت على حلّ الكثير من التناقضات الفقهيّة التي تصادفنا في موضوع المرأة وشؤونها.

منها: إنّ القرآن الكريم يقرّر بأنّ حقيقة الرجل والمرأة من أصل الخلقة هي من الجنّة، وأنهما من سكان الجنة ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾[2] والجنّة هنا هي مقام القرب الإلهيّ والأنس الربّانيّ وحظيرة اللطف والرحمة، ويتساوى حقّ المواطنيّة الروحيّة لهما فيه. وإذا كان الخطاب لآدم؛ فليس لأجل خصوصيّة ذاتيّة فيه؛ بل لأنّه كما يقول أستاذنا الشيخ الجوادي الآملي (حفظه الله) هو الوليّ والحجّة. والحجّة في كلّ العوالم واحد بناءً على نظريّة عالم الوحدة، ثم أنّهما أكلا من الشجرة وهبطا إلى الأرض معا، وهما متساويان فيما يحملانه من استعدادات في الخلق والقدرة الإدراكيّة، والفطرة، وكلّ الثروات المعنويّة والماديّة، ثمّ في السلوكيّات الأخلاقيّة، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ..... ﴾[3]

وحين ننتقل من الخلقة إلى الأحكام فهما كذلك يسلمان معا، ويؤمنان معا، يهاجران، يجاهدان، يصلّيان، يحجّان، لا تفاوت بين قيمة إسلام وإيمان

---

(١) الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي، ج ٥

(٢) البقرة/ ٣٥

(٣) الأحزاب/ ٣٥

أحدهما على الآخر، وإذا كان هناك اختلاف قانونيّ فهو في أغلب الحالات اختلاف معلّل ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [1] ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [2] وهنا نكتة أشير إليها: وهي أنّ التعليل دلالة على احترام عقل الآخر وأنّه يمكن أن يصل للملاك في الاختلاف والتفاوت وليس هو مثل السوْق إلى إلزام بلا مبرّر، فإنّ الإنسان عدوّ ما جهل، (وإذا عرف السبب بطل العجب).

العنصر الثاني: عدم الاهتمام بالسيرة التاريخيّة للمعصومين:

إذا قيل أنّ السنّة هي قول المعصوم وفعله وتقريره، ففي موضوعنا أطرح سؤالاً مهمّا: أين هي الصديقة الزهراء سيدة نساء العالمين (عليها السلام) من فقهنا كلّه، العبادات والمعاملات؟ وأين هي في نشاطاتنا الاجتماعيّة والفرديّة؟

وكيف نبقى نتعامل على أنّ صوت المرأة عورة بلا تحييث لهذه الرواية بناء على السيرة؟!

وكيف نجمد على نصّ مقابل سيرة واضحة جدّاً وذات آثار كبيرة في حياتنا العقائدية؟

ولماذا نتعامل دائماً على أنّ المرأة ذات جنسيّة بالدرجة الثانيّة، أو لا جنسيّة لها؟

هذان العنصران – كما قلنا – نقدان أساسيّان على المنهج في البحث الفقهيّ السابق، لكن التجديد الذي حدث فعلاً تجاوز هذين النقدين.

فقد أخذت المرأة دورها الكبير وموقعها الأساس في النظام الإسلاميّ. فالمرأة اليوم فقيهة، وفيلسوفة، ودكتورة، وعضوة برلمان، ومستشارة لرئيس

(١) النساء/ ٣٤

(٢) البقرة/ ٢٨٢

الجمهوريّة. وهي في المسجد، وفي الانتخابات، وفي المعارضة. وهذه ليست صرف شعارات وتطمينات؛ بل إن هناك تغييرات قانونيّة أيضاً في هذا الميدان أذكر منها بعض المسائل:

المسألة الأولى: إرث الزوجة من الأرض.

من المعلوم أنّ المرأة لا ترث من الأرض، وإنما ترث من قيمة البناء. إلا أن هناك استفتاءات تجديديّة في ذلك، منها: [1]

ج١ الزوجة ترث من قيمة المنازل كلها.

ج٢ الزوجة ترث من قيمة الأراضي كلها.

ج٣ تقدم أن الزوجة ترث من قيمة الأرض والبناء معاً.

المسألة الثانية: مسألة دية المرأة وأنّها نصف دية الرجل.

ويعتبر الفقه هنا منحازاً إلى جانب الرجل، فلماذا تكون دية المرأة نصف دية الرجل مع أن لكل من المرأة والرجل روح متساوية؟ وللجواب نقول: إنّنا لا نعرف ملاكات الأحكام الشرعيّة على نحو القطع والجزم، ولكن يمكن أن نجد توجيهاً من نفس لسان الشرع والدين.

إنّ مسألة الدية مسألة حقوقيّة وليست حقيقيّة، بمعنى أنّ للإنسان وجود حقيقيّ، وهو نفسه، وهذه لا قيمة تقابلها، وهو ما تحكيه الآية ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[2] لا فرق بين نفس المرأة

(١) مركز الفقاهة للدراسات والبحوث الفقهية، مسائل وردود حول إرث الزوجة من الأراضي والمنازل. (جواب الاستفتاء للسيد الخامنئي (حفظه الله)).

(٢) المائدة/ ٣٢

والرجل. ثم هناك للإنسان وجود غير نفسه، وهو بدنه، وفي هذا الجانب ينظر للبدن لا للنفس، وهذا البدن لا فرق فيه بين العالم والجاهل والوضيع والعارف والمرجع والمجنون، فديتهم واحدة، والمال يرجع لأهل الميّت وأولاده. فإذا كانت دية المرأة النصف فلأنّ المرأة في الأغلب غير مسؤولة عن أسرة ولا تتحمّل تكاليف أكثر من شأنها.

ولكن هناك اليوم قانون في إيران أقرّه مجلس الشورى أخيراً، ينصّ على أنّه لو تمّ التأمين على روح امرأة أو رجل، ثم حدث أن قُتل بحادث مروريّ فإنّ قيمة الخطأ في الحادث واحدة، سواء كان المتوفّي رجلا أو امرأة.

المسألة الثالثة: شهادة المرأة في الهلال.

أصل المِلاك في الشهادة هي العدالة والتثبّت ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُم﴾[1] فشهادة الفاسق تردّ ولو كان رجلا، لأنّ المناط ليس في الذكوريّة. ولكن أيضاً هناك توجيه علميّ لعله يفيد في هذا المجال، يقول أحد المفكرين الأجانب: لقد سبق الإسلام العلم بكثير حينما قبل بشهادة الرجل في رؤية الهلال ولم يقبل بشهادة المرأة، وذلك لأنّه ثبت علميّاً أنّ هناك اختلاف تكوينيّ في كيفيّة عمل نظر المرأة ونظر الرجل، تماماً كما أنّ هناك وظائف لجسميهما مختلفة فسيولوجيّا، فإنّ المرأة إذا نظرت لشيء بعيد فنظرها أفقي. مثلاً إذا كانت تبحث عن شيء فهي تنظر لكلّ ما حولها أفقيّا، بينما نظر الرجل عموديّ. والنظر في السماء لتشخيص شيء حاد يحتاج لتمركز عموديّ.

(١) الطلاق/ ٢

إن هذه حقيقة علميّة قد لا تكون فعلاً هي السبب والملاك في عدم قبول شهادة المرأة في رؤية الهلال.. لكنّه إذا ثبت ذلك علميّاً فهو يصلح لتوجيه هذا الإشكال.

محاضرات

قضايا المرأة وإرباك المفاهيم[1]

أبارك للأخوات ميلاد سيدة نساء العالمين بضعة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وزوج علي (عليه السلام) وأمّ الأطهار (عليهم السلام) . كما أبارك ميلاد مفجّر الصحوة الإلهيّة ومنقذ المستضعفين من نير الظالمين الإمام الخميني (قدس سره) . وإذا كان بينهما وجه شبه كما بين الأصل والبرعم، فشبههما في الدور أوضح، فقد قامت الزهراء (عليها السلام) بدور نبوي حين أنقذت الناس من الغواية، الدور الذي تصفه بقولها : « فَرَأى الأُمَمَ فِرَقًا في أدْيانِها، عُكّفاً على نيرانِها، عابِدَةً لأَوثانِها، مُنْكِرَةً للهِ مَعَ عِرْفانِها فَأَنارَ اللهُ بِمُحَمّد صلى الله عليه وآله ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلّى عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها، وَقامَ في النّاسِ بِالهِدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغَوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ »[2]

وقد تكرّر هذا الدور بنحو ما في الإمام الخميني (قدس سره) متأسّياً بأمّه الزهراء (عليها السلام)، فنحن أمام دور مشترك بين الإمام الخميني وجدته الزهراء(عليها السلام)، والفارق بينهما أن دور الزهراء (عليها السلام) أصل ودور الإمام (قدس سره) بالتبع . فيحقّ لنا ونحن جيل قد منّ الله عليه بهذا اللطف الإلهيّ أن نجعل يوم ميلاده عيداً، ولا سّيما أنّ من أهمّ القضايا التي عالجها الإمام هي قراءة ملفّ المرأة قراءة صحيحة .

هناك أمور مع أنّها من البديهيّات، لكنّها مشوّشة وغير واضحة . ومن أسباب عدم وضوح الرؤية وجلائها وجود مشوّشات وموجات مضادّة تثار حول الأمور فتؤدّي إلى غموضها وعجز الإنسان عن اكتشافها .

وكما أنّ الغبار الكثيف يحول بين العين الباصرة ورؤية الواقع فإنّ الشبهات والوضع البيئيّ والأهواء تحول بين العقل والبصيرة وبين رؤية الحقيقة . ومن

---

(١) كلمة للعالمة الفاضلة في حوزة الزهراء (عليها السلام) في سيهات .

(٢) الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء (عليها السلام) .

الأمور التي ابتلي بها مجتمعنا الإسلاميّ في القرنين الأخيرين خلط المفاهيم وتضييع حدودها.

ومن الميادين التي حدث فيها هذا الخلط المفاهيميّ ميدان المرأة. فما أثير من شبهات وأفكار وتساؤلات في شأن المرأة وموقعها، بل حول وجودها وكيانها، دفع زعيماً بحجم الإمام الخميني (قدس سره) لإعلان يوم ميلاد الزهراء (عليها السلام) يوماً للمرأة، وتوجيه خطاب خاصّ بهذه المناسبة في كل عام على خلاف المناسبات الأخرى.

وكأنّه أريد لهذه الأمة أن تغرق في شبر من الماء، فقد حجبت تلك الشبهات الرؤية الواضحة حول المرأة، والتي شكّلتها النصوص القرآنيّة الصريحة وأرستها السنّة المطهرة. ومن الغريب أن تولد هذه الفكرة في المجتمع الإسلاميّ، لأنّ القرآن الكريم يقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[1] فمثل هذا النصّ المحكم الواضح كان من المفترض أن يكون سياجاً قويّاً وحصناً منيعاً يحول دون نفوذ الكثير من المفاهيم المربِكة، ومن المؤسف أن نحتاج إلى الكثير من الجهد والوقت وإهدار الإمكانيات من أجل تثبيت حقيقة بهذا الوضوح، إلا أن هناك غباراً فكريّاً كثيفاً جدّاً يحجب رؤية الواقع، وهناك أزمة فكريّة وأخلاقيّة وقيميّة؛ بل هناك أهواء تتّبع، ومناهج تبتدع، بعضها من الداخل وبعضها من الخارج حالت دون وضوح الرؤية في شأن المرأة.

أما التي من الداخل فهي بحسب رأي أستاذنا الشيخ الجوادي الآملي:

١- خلط النصوص الدينيّة مع ما وصلنا من التراث خلطاً غير موضوعيّ.

ومن أهم عوامل الخلط في قراءة النصوص الدينيّة المتّصلة بالمرأة عدم تحييث النصّ الدينيّ باختلاف الخصوصيّات والعناوين. ويقصد بالتحييث

(١) النساء/ ١

وضع كلّ نصّ ديني في موضعه حتى يُعرف رأي الدين. يقول سماحة الشيخ ما مضمونه: يجب أن يحيّث موضوع المرأة، فندرس في النصّ الدينيّ أوّلا المرأة مقابل الرجل. فالمرأة من حيث العموم هي كالرجل تماما، وتفاضلهما إنّما هو بالتقوى التي هي مدار الكرامة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] والتقوى محلها القلب والروح وليس البدن، والقلب ليس مذكراً ولا مؤنّثا. فالتفاوت الواقعيّ هو بحسب الكمال الروحيّ.

٢- النظرة المجتزأة للنصّ الدينيّ.

ويرى الشيخ الجوادي هنا أننا يجب أن ندرس النصوص الدينية التي تتحدّث عن المرأة من حيث كونها أمّا، أو زوجة، أو بنتا، مضافة إلى بقية الأبعاد لنخرج من النصوص بصورة مكتملة للمرأة في المنظور الإسلامي.

هذان العاملان سبّبا إرباكاً فكريّاً حول المفاهيم التي تتعلّق بشأن المرأة ومن أهمّها الزوجيّة، التي أصبحت مثار شبهات كثيرة بين المتديّنين والمثقّفين.

الزوجيّة وموقعها في الإرباك المفاهيمي في شؤون المرأة

لكي نعطي مفتاحاً لحلّ كلّ الإشكالات والتساؤلات المتعلّقة بالزوجيّة لابدّ أن نعرف أنّ عقد الزوجيّة هو مثل سائر العقود، لا يختلف عن عقد البيع والإجارة، وتجري فيه كلّ أحكامها ماعدا خيار الفسخ. وارتباط أيّ امرأة برجل لا يعني الارتباط الحلولي (أي الذوبان كما يحدث في الماء والسكّر).

ثم إن عقد الزوجيّة مثل أيّ عقد شرعيّ آخر لا يمكن ضمان العدالة فيه، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «الحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف»[2] فيمكن أن يحدث في عقد الزوجية ما يحدث في سائر العقود

(١) الحجرات/ ١٣

(٢) نهج البلاغة، من خطب الأمير في صفين.

من سوء الاستفادة من الصلاحيّة، وسوء تطبيق الأحكام، وأحاديّة النظر، والاختلاف في فهم المواد، وعدم الإنصاف، فأكثر الخلطاء يبغي بعضهم على بعض. يقول تعالى: ﴿وإنّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.[1]

الإسلام ينظر للعقد الزوجيّ كما ينظر لغيره من العقود، ولا يعني هذا أنّ الإسلام لا يريد أن يحيي روح المحبّة والمودّة، فذلك ملفّ آخر. حديثنا في عقد الزوجيّة بما هو عقد شرعيّ له ما للعقود الشرعيّة من أحكام ولوازم، فيفترض أن تؤخذ فيه الشروط التي تضمن صحّة بقاء هذه الشراكة. ولا كراهية في إضافة شروط من قبل الزوجة للشروط الأساسيّة ضمن العقد. وغفلتنا عن هذا القانون (أي جواز إضافة شروط في العقد) لا يعني أن نقرأ الحقوق الزوجيّة مجتزأة من هذا المركّب المتكامل. أما كون البيئة الاجتماعية لا ترى حسن هذا النمط من التعاطي في عقد الزوجيّة فلا يعني أنّه مخالف للمذاق الدينيّ. وعلينا هنا أن نلفت إلى أمر، وهو ضرورة تنظيم مشاعرنا وسلائقنا ضمن المركّب الدينيّ وليس العكس. فمن قال أن الحسْن والقبح محكوم لأمواجنا النفسيّة التي تولّدت من تراكمات بيئيّة، والتي كثيراً ما تكون مانعاً عن النظرة الواضحة الأصيلة للمواضيع الشرعيّة والنصوص الدينيّة؟! أليس من المحتمل أن تكون بعض المشهورات الاجتماعيّة لا أصل لها كما كان يكرّر السيد محسن الحكيم في فقهه: «كم من مشهور لا أصل له»[2]. لماذا نلقي بأثقال جهلنا على الشرع ثم نجعله في قفص الاتهام ونحاكمه؟!

سأضرب مثالاً لذلك:

---

(١) ص/٢٤

(٢) حقائق الأصول للسيد محسن الحكيم ج ٢ «ولاجواز للاستدلال بها وإن نسب إلى المشهور تواترها لكنه مما لا أصل له...»

الرواية المشهورة المتداولة في الأوساط الدينية (لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)[1] حين نقرأ الرواية ضمن ما ذكرنا من ضوابط فسنقول: إذا افترضنا أن هناك شريكين، واستغلال الصلاحيات وارد من الطرفين، وأحد الطرفين قابل للموعظة دون الآخر، بحيث يتحمّل ويضحّي أكثر (وهو المرأة) فالعاقل يقول له لا بد لك أن تتحمل وتتغاضى وترضى حتى لا تقع في الظلم، هذا محمل معقول نحمل عليه الرواية.

إن التشريع الإسلاميّ لم يجعل لطرف صلاحية إلّا وجعل للآخر حقّاً للحدّ من سوء استخدام الصلاحية، وأغلب مشاكلنا الأسريّة إنما هي ناتجة عن جهلنا بالتشريع.

وأما العوامل الخارجية التي حالت دون وضوح الرؤية في شأن المرأة، فهي تصدّر لنا بألوان الطرق التي ربّما لا نلتفت لها.

فما يتسرب لنا من العالم الغربي، من شأنه ليس فقط تشويش القانون والفقه والشرع، بل تشويش وهدم الأصول الأساسيّة للبناء الإنسانيّ، لدرجة إعماء البصيرة وطمس الفطرة، وشلّ الحركة الإنسانيّة الطبيعيّة فضلاً عن القانون الشرعيّ.

إنّ الغربيّ يؤمن بأصالة الإنسان ومحوريّة البدن ويسعى جاهداً للتفلّت من الجذَبات الفطريّة الواقعيّة، ومنظومته الفكريّة تُظهر من المفاهيم برّانيها وقشرها فقط. فالحريّة وفق المدرسة الغربيّة هي التصرّف في البدن، والسعادة هي تمدّد البدن في لذائذه، فالذي يُضرب هنا ليس القانون بل الأصول.

إن أهم مفهوم تدعو له الثقافة الغربية في حقوق المرأة وتعتبر نفسها حقّقت تقدّماً فيه هو مفهوم الحرّيّة. ولكنّه مفهوم بالمعنى الذي ينسجم مع أصولها

(١) «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللهِ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا» سنن ابن ماجه.

حيث تبدأ وتنتهي في محور الجسد. هذه الموجة التي أغرقت الكثيرين في لججها الغامرة بلا رحمة، لهي أضعف وأوهن من بيت العنكبوت، وإذا واجهناها بأصولنا الكلاميّة والفلسفيّة والأخلاقيّة فإنّنا سننقض ما يقوله الغرب من الأساس.

الحرّيّة في المفاهيم الدينيّة هي وصف جوّانيّ باطنيّ، روحيّ معنويّ، وهي رسالة الأنبياء (عليهم السلام). والحريّة في المفاهيم الدينيّة ليست حرّية البدن، وليست كسر قيود الأخلاق للسقوط في قيود أشد وأكثر ضراوة منها. يقول الأمير (عليه السلام): «ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا»[1]. الدقيق في كلام الأمير (عليه السلام) هو أنّه يجعل الحرّيّة موضوعاً كلاميّاً عقائديّا، وأصلاً وجوديّا، فنقطة انطلاق الحرّيّة هي تكوين وجود الإنسان، وهي بعد من أبعاد أصوله. ومنشأ التحرّر هو من الله. والحرّيّات الأخرى (البدنية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية) إنّما هي بالتبع، والتي هي منتهى نظر الغربيّ ومدّ بصره.

ليس شرطاً أن يقيدك غيرك بل قد تقيّدك شهواتك، رغباتك، جهلك. وأكثر الناس كذلك، فأكثرنا يعتقد أنّه حين يملك مسكناً واسعاً ووظيفة وأموالاً فهو حرّ، ولا يلتفت أنّه إذا مرّ يوم لم يتعلّم فيه فهو أسير لجهله.

مشكلتنا أنّنا نريد حلّ المشاكل الخارجيّة، لكنّنا في الواقع لا نعرف بجهلنا مطلوبنا الأصيل، ولا نعرف عدوّنا الأصيل. لذا فعلينا حين ننادي بالحرّيّة أن ننادي بتحرّر الإنسان المكبّل بالجهل والهوى والتعلّق بالدنيا والراكض وراء العاجلة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[2] لاحظوا الدقة في قوله (وسعى لها سعيها) سعيها وليس سعيه هو، لأنّ الآخرة هي الهدف، فالوسيلة لابدّ أن تكون أخرويّة.

(١) نهج البلاغة، من وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لابنه الإمام الحسن (عليه السلام).

(٢) الإسراء/ ١٩

والاشتباه الحاصل اليوم هو أن أكثر الناس يسعى للآخرة بطريقته هو. بينما السعي لابدّ أن يكون متناسباً مع الهدف. وأنّى للجاهل المكبّل بالأنانيّة والهوى أن يسعى إلى الحرب الواقعيّة؟

إذا نظر الإنسان إلى خالقه وعرفه، ثم عرف علاقته به وكما يقول الفلاسفة عرف علاقة الخالق بالمخلوق، فسيرى نفسه في فضاء واسع، ويرى نفسه فوق كلّ قيد وضعف، فيطال بهمّته معالي الأمور. وهنا مكمن الحرّيّة في فهم الدين، ولا يأسر الإنسان في نظر الدين إلّا الهوى والجبن والبلادة وضعف العقل من أيّ جهة صدر، سواء من نفس الإنسان أو من زوج أو أخ أو نظام أو مجتمع. ومقاومة الجهل والعجز والهوى هي الحريّة بحقّ. وعليه فالجبان أسير، والجاهل أسير، رجلاً كان أو امرأة.

نحن في الحقيقة نعيش أزمة فكر، وينبغي أن نواجه هذه الأزمة على جبهتين: جبهة داخليّة نعالج بها التشكيكات المثارة حول المرأة من خلال تصحيح فهم النصوص الدينيّة والأحكام الشرعيّة في هذا الباب، وجبهة خارجيّة نصدّ بها ما يأتينا من الغرب ليضرب أصولنا الأساسيّة، وأفضل يوم للإعلان عن هذا الجهاد الروحيّ والفكريّ للكفر والانحراف بكل أشكاله هو يوم ميلاد الزهراء (عليها السلام).

أصابت امرأة وأخطأت أمّة[1]

قال تعالى: ﴿إِنّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فصل لربّك وانحر* إن شانئك هو الأبتر﴾[2]

بهذه السورة التي هي أقصر السور كشف القرآن عن كوثريّة الصدّيقة الزهراء (عليها السلام)، فالكوثر هو مصدر الخير الدائم المستمرّ الذي يعود إليه كلّ خير وبركة وفيض. يقول الراغب الأصفهاني: «ويقال تكوثر الشيء: كثر كثرة متناهية.»[3]

إنّ نفس هذا التجمّع للرجال والنساء والعلماء والفضلاء ومفكّري الأمّة من أجل إحياء ذكرى ميلاد هذه السيدة الجليلة هو معجزة في حدّ ذاته، فإنّنا لا نعرف مفكّراً ولا فيلسوفاً ولا حتّى نبيّاً يحيي الناس ذكرى ميلاده بعد آلاف السنين بكلّ هذا الزخم والعظمة، وهذا كاشف عن ربّانية هذا القرآن وإعجازه إذ قرّر سبحانه هذه الحقيقة بعد أن وهب الزهراء (عليها السلام) لنبيّه فقال: ﴿إِنّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

حديثي بعنوان (أصابت امرأة وأخطأت أمّة)، وسأقدّم لهذا الحديث باستعراض واقع حياتيّ تعيشه البشريّة الآن، وله انعكاس على واقعنا:

عادة ما نلقي بأسباب ضعفنا ومشاكلنا الثقافيّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة والسياسيّة على الغزو الثقافيّ الغربيّ، وعلى سير عجلة حياتنا وفق المنطق الرأسماليّ، وما له من آثار وانعكاسات سياسيّة واجتماعيّة وثقافيّة وفكريّة واقتصاديّة. ومع واقعيّة هذا الأمر، إلّا أنّ المشكلة ليست منحصرة في ذلك،

(١) المحاضرة بمناسبة ميلاد السيّدة الزهراء (عليها السلام) لعام ١٤٣٦هـ.

(٢) سورة الكوثر.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص٧٠٣

بل أعتقدُ أنّ جزءاً من المشكلة يكمن في عدم معرفتنا بالتراث الذي عندنا، وعدم استفادتنا منه.

إنّ أحد أسباب موت أيّ أمّة وأيّ مجتمع؛ بل أيّ إنسان هو عدم معرفته بالتراث الذي بين يديه معرفة عميقة. من هنا فمن أهمّ أسباب التخلّف الفكريّ والاجتماعّي والسياسيّ والثقافيّ عندنا هو عدم معرفتنا بتراثنا الذي ورثناه من أهل البيت (عليهم السلام).

في هذه المناسبة سأقف على مفردة من تراث الصدّيقة الزهراء (عليها السلام) من خلال رواية يحفظها الجميع، ويقول بها المخالف والمؤالف، ثم سنتأمّل في ما تستبطنه هذه الرواية من دروس ونبيّن كيف كنّا نمرّ عليها مروراً عابراً.

الرواية هي قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «...فاطمة سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين».[1]

إنّ عدم فهمنا لعمق هذه الرواية، ومرورنا على مفهوم السيادة مروراً سطحياً هو أحد أسباب عدم قدرتنا على بناء مفاهيم ثقافة صحيحة وأصول سليمة. ومن خلال التأمّل العميق في هذه الرواية سنقف على ثلاثة أركان تستبطنها السيادة هي:

١- سلامة المعايير.

٢- روح العزيمة.

٣- خدمة الآخرين.

الركن الأول: السيادة وسلامة المعايير.

نحن نرى في عالم اليوم – سواء في المجتمع الغربيّ أو المجتمع الشرقيّ – أنّ

(١) الأمالي للصدوق، ص ٢٦

المرأة تضع الرجل معياراً لطموحها بدءاً من جانبها الأسريّ، ثم الاجتماعيّ وصولاً إلى الأمّي، وعندما تطالب بحقوقها سواء في الشأن المادي، أو في الشأن الفكريّ والثقافيّ والاجتماعيّ، فهي تجعل موقع الرجل سقفاً لمطالبها، فالرجل المرجع أو الرجل المثقّف أو غيره هو الهدف والرؤية والطموح بالنسبة للمرأة، ومطلبها المساواة معه.

هذا المعيار في الواقع يحدث صراعاً بين المرأة والرجل، خاصة على مستوى المجتمع والأسرة. فالرجل لن يرضى أن تسابقه المرأة، ويمكن بالتالي أن يرفع سقف صلاحيّاته الاجتماعية والأسرية. وهذا النوع من التنافس يولّد التنازع والاختلاف بين الجنسين في كل المجالات، ويشتد أثره على الواقع الأسري إذ قد يحدث نوعاً من عدم الانسجام بين الزوجين.

لكن لو تعمقنا في فهم الرواية، فسنجدها تشير إلى ميزان آخر، لا يجعل من التسابق في الموقعيّة هو الميزان بين المرأة والرجل، بل يقدّم معياراً قرآنيّاً وهو: السبقة إلى الخيرات.

فاستبقوا الخيرات

يدعو القرآن إلى التنافس والتسابق، فهو أمر مطلوب وطبيعيّ، لكن القرآن يضع معياراً للتسابق يتمثّل في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1] مبيّناً أن الهدف المطلوب والمعيار الذي نتسابق في الوصول إليه يجب أن يكون هو (الخيرات) لا (موقعيّة الرجل) أو غيره. فالخيرات هي النهاية.

إذن، ووفق هذا المعيار القرآني، تكون الخيرات هي المعيار الذي يجب أن نطالب بحقوقنا – نحن معاشر النساء – بناءً عليه.

(١) البقرة/ ١٤٨

نعم، نحن لا ننفي وجود قدوات في عالم الرجال، لكن الرجولة والذكورة لا تصلح أن تكون قيداً في التقدّم أو عدمه. هذه الفكرة التي تشبّعنا بها ليست صحيحة، فليس معيار الحقّ والباطل والتقدّم والتأخّر هو الرجل، والمرأة التي تضع الرجل معياراً لها، وتتصور أنّه لا كمال لها إلّا بنيل رضاه، ويكون سقف طموحها هو اللحاق به، هذه المرأة سوف تعيش دائماً على الهامش! وفرق كبير بين الإنسان الذي يعيش على الهامش والإنسان الذي يعيش في قلب الحياة.

ثم إن هذا النوع من التسابق يوقع المجتمع في إرباكات كثيرة اجتماعية واقتصادية وغيرها، فإذا أصبح الرجل هو المقياس، فستبذل المرأة الجهود وستنفق الأموال لتتساوى بالرجل. أو ستتّجه نحو إرضاء الرجل بالغرق في توفير الكماليّات. وهذا الطريق سيوصلها حتماً إلى الهامش. لذا يجب أن يكون معيار المرأة والرجل هو السبق إلى الخيرات.

تصيب امرأة ويخطئ رجال

قد يخطئ كلّ الرجال – بما فيهم العقلاء والمتقدّمين علميّاً وفكريّا – وتصيب امرأة، وهذا فعلاً ما حدث في تاريخ الصديقة الزهراء (عليها السلام).

قبل أن أشرح كيف أصابت الزهراء (عليها السلام) وأخطأت كلّ الأمّة، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ مرادنا من الأمّة هو عقلاء الأمّة آنذاك، وليس منافقيها ومنحرفيها. فإنّ من كانوا أعضاد الدين وحضنة الإسلام وحفظة الوحي آنذاك، كلّهم أخطأوا وأبطأوا عن السبق في الخيرات وتقدّمت الزهراء (عليها السلام) حتى كانت بحق سيدة نساء العالمين، ولو جعلت الرجل معيارها لما حققت تلك السيادة، حتى لو كان هذا الرجل هو أمير المؤمنين (عليه السلام)؛ إذ لو جعلت السيدة الزهراء (عليها السلام) حركتها في إطار حركة أمير المؤمنين (عليه السلام) لم تكن لتحقّق هذا الدور في الأمّة. فمع أن أمير المؤمنين (عليه السلام) هو نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ إلا أن دور الصديقة الزهراء

(عليها السلام) كان خاصّا، ووظيفتها كانت مستقلّة.

نحن نحتاج عمْراً حتى نفتح العقول والأذهان لفهم أنّ الزهراء (عليها السلام) لم تعش على هامش الرجل، ومن أجل أن نفهم أن سيدة نساء العالمين لا يعني أنها (عليها السلام) سيدة للنساء فقط – كما يقول أستاذنا الحائري– بل هي سيدة النساء والرجال. أوَ ليس كلّ الرجال يخاطبونها في الزيارة بـ(سيدتي ومولاتي)؟!

كم نحتاج إلى زمن طويل لنتمكّن من الطرح الحقيقيّ والواقعيّ الذي يصحح هذه المفاهيم!

إنّ من أهم أسباب عدم فهمنا لمعنى (سيّدة نساء العالمين) هو أنّنا – كما تقدّم – لم نتأمّل في تراثنا، والقرآن يذمّ ذلك، يقول تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[1] أي أنّنا نحفظ هذا التراث العظيم، لكنّنا نمرّ عليه مروراً عابراً بلا تأمّل وتدبّر. يقول الشهيد الصدر (قدس سره): إن أحد أسباب جهل الإنسان هو أن يأخذ المعاني بنحو ارتكازيّ، أي يتوهّم أنّه فهم المضمون ووعاه، لكنّه ليس كذلك، وهذا ما يسمّى بالجهل المركب.

كيف أصابت الزهراء (عليها السلام) وأخطأت الأمّة؟

الأمر الأوّل الذي نستفيده – من ناحية اجتماعيّة – في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ابنتي فاطمة سيدة نساء العالمين...»[2] هو أنّ المرأة قد تفقه أموراً لا يفقهها

---

(١) يوسف/ ١٢

(٢) «... وإنها لسيدة نساء العالمين. فقيل: يا رسول الله! أهي سيدة نساء عالمها؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): ذاك لمريم بنت عمران، فأما ابنتي فاطمة فهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وإنها لتقوم في محرابها فيسلم عليها سبعون ألف ملك من الملائكة المقربين وينادونها بما نادت به الملائكة مريم فيقولون: يا فاطمة (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) ...» أمالي الصدوق.

الرجال. فالمرأة التي تسابق ومعيارها (الخيرات) لا (الرجل) سوف تسبق أقواماً حملوا ثقل هذه الرسالة في مورد ما، ثمّ تضعضعوا عن هذا الحمل، وتركوا ثقل الرسالة.

قالت (عليها السلام) في خطبتها وهي تتحدّث عن ذلك واصفة الأنصار: «... أعضاد الملّة، وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقّي والسنة عن ظلامتي؟!»[1] والأعضاد هم الرجال الأقوياء الذين يقدرون على الحمل الثقيل. لكن الزهراء (عليها السلام) مع ذلك لم تجعل تاريخهم وواقعهم ومواقفهم معياراً لها، لأنّ ذلك معناه أن تعيش هي على الهامش، ولا تكون سيّدة.

يجب أن لا تجعل المرأة منتهى آمالها وطموحها ونهاية ما ترجو من الحقوق أن تتساوى بالرجل؛ لأنّ معنى ذلك أنّها لم تؤسّس لنفسها مبنىً قوياً وصحيحاً للمسابقة الواقعيّة باتجاه الخيرات، وباتجاه الأعمال الصالحة والإنجاز، والخروج من الذاتيّة إلى الفعّاليّة في الواقع الاجتماعيّ، وهذا فعلاً ما أصابت فيه الزهراء (عليها السلام) و أخطأت الأمّة.

لقد أراد الإسلام أن يرفع هذا المعيار ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ ويصحّح المسار. فالسبق إلى الخيرات يحتاج إلى الحكمة، والعقل، وحسن الإدارة، والعلم، والقدرة على تشخيص الواقع، ولا تفاوت هنا بين المرأة والرجل. وأحد أشكال السبق في الخيرات هو معرفة الحقّ والدفاع عنه. مثلاً: لو كان الرجال في مجتمع ما يتّجهون للعمل بالتقيّة في موقف معيّن، فإنّ هذا لا يلزم المرأة باتّخاذ نفس الموقف والإجراء، فكثيراً ما تمتلك المرأة مساحة أكبر من الحريّة، ويمكنها اتخاذ موقف أكثر تقدّماً من الرجل.

(١) دلائل الإمامة، الطبري الآملي، ص١٢٠

نحن لا نريد أن نحدِث صداماً اجتماعيّا، لكن الغرض هو بيان أنّ وضع الرجل كمعيار قد سبّب خللاً وإرباكاً في فهم دور المرأة لأنّنا لم نفهم مضمون الرواية.

الركن الثاني: السيادة وروح العزيمة

إنّ السيادة وروح العزيمة واحدة، فلا يكون الإنسان سيّداً إلّا عندما يحمل في حناياه العزيمة على تحقيق النصر والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة. ولا يمكن لمن ينطوي على الجبن وروح الهزيمة أن يكون سيداً.

السيّد هو من يملك الإرادة، والنظر الجادّ للحياة في بعديها الدنيويّ والأخرويّ، وهذه هي امتيازات الصديقة الزهراء (عليها السلام)، فلم تكن (عليها السلام) لاغية ولا لاهية، بل كانت حياتها مليئة بالجدّية والجدّ.

ومن المؤسف أن نرى واقع المرأة اليوم وهو بعيد كل البعد عن سيرة الزهراء (عليها السلام)، إذ طغى على حياة المرأة عدم الاكتراث بالوقت وعدم الجدّيّة في الحياة مما أدى إلى سلبيّات كثيرة على الأسرة وتربية الأبناء.

الركن الثالث: السيادة والخدمة وجهان لعملة واحدة

ثمّة مثل معروف يقول: «سيّد القوم خادمهم»[1] وليس المقصود بالخادم هنا الشخص الذي توكل إليه الوظائف الثانويّة؛ بل هو الذي يخدم عندما يعجز غيره عن القيام بالخدمة. سيّد القوم هو الذي يسدي لقومه أكبر الخدمات.

الزهراء (عليها السلام) سيّدة بهذا المعنى أيضا، فقد قامت بدور عجز الجميع عن

(١) بحار الأنوار، ج ٧٣ ص ٢٧٣

أدائه، بل عجزوا حتى عن تشخيصه. وعندما شخّصت لهم الزهراء (عليها السلام) الموقف لم يتحمّلوا الدور. وقد عبّرت (عليها السلام) عن ذلك بقولها: «...ألا وَقَدْ قُلْتُ ما قُلْتُ عَلى مَعْرِفَةٍ مِنّي بِالْخَذْلَةِ الَّتِي خامَرَتْكُمْ، وَالغَدْرَةِ التِي اسْتَشْعَرَتْها قُلُوبُكُمْ...»[1]. فمع تشخيص الزهراء (عليها السلام) للدور والموقف، إلا أن هذه الأمّة لم تكن تريد أن تخدم الدين، ولم تكن مستعدّة لبذل شيء، في الوقت الذي كانت الولاية أحوج ما تكون إلى خادم.

عندما نقول أن الزهراء (عليها السلام) (سيدة نساء العالمين) فلأنّها قامت بخدمة لم يستطع أحد القيام بها، ولم يتقدّم أحد للقيام بها. فالسيادة قرينة الخدمة، فعندما يحتاجك مجتمعك عالما، أو فقيها، أو مؤلّفا، أو ثائراً على الواقع الفاسد، فيجب أن تقدّم هذه الخدمة مهما كلّفت من تضحيات. عندها ستكون سيّدا.

إنّ الذي جعل الزهراء (عليها السلام) سيّدة نساء العالمين هو أنّه لم يكن لها معيار إلّا استباق الخيرات، وقد ملأت (عليها السلام) القلوب بالإرادة والقوّة والشجاعة، وقدّمت للأمّة ما عجز عنه غيرها. وحقّ لنا أن نعتزّ بمثل هذه المرأة وأن نرفع رؤوسنا حين نكون خدماً لها (عليها السلام).

أسأل الله سبحانه وتعالى الذي رزقنا في الدنيا ولايتها وجعلنا من المتمسّكين بها؛ أن يرزقنا في الآخرة رضاها وشفاعتها والحمد لله ربّ العالمين.

(١) بحار الأنوار، ج ٢٩ ص ٢٢٩

العفاف الفاطمي أبعاد وآثار [1]

عن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «هبط علي جبرئيل الروح الأمين (عليه السلام) فقال لي يا محمد أقرئ فاطمة السلام وأعلمها أنها استحيت من الله تبارك وتعالى فاستحى الله منها فقد وعدها أن يكسوها يوم القيامة حلتين من نور» [2]

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): «يَا ابْنَ جُنْدَبٍ الْإِسْلَامُ عُرْيَانٌ فَلِبَاسُهُ الْحَيَاءُ وَزِينَتُهُ الْوَقَارُ»[3]

في الرواية الأولى معنى ملفت، وهو أنّ الله قد استحى من فاطمة (عليها السلام)، والحال أن الحياء لا يكون إلّا نتيجة وجود نقص أو عيب، والله سبحانه هو الذات التي لها مطلق الجمال والكمال، فلا يمكن أن نقبل هذه الرواية من جهة عقليّة إلّا إذا عرفنا معنى حياء الله سبحانه. لكنّنا قبل ذلك سنوضّح قيمة الحياء في الثقافة الدينيّة، ومعنى أن الحياء لباس الإسلام ثم نشرح معنى الرواية الآنفة الذكر.

الإسلام عبارة عن مفاهيم وتصوّرات في الذهن تشمل العقائد والأخلاق والأحكام، كالاعتقاد بوحدانية الله، والإيمان بعدل الله، وإدراك حسن العدل، وقبح الظلم، وحسن الصدق، وقبح الكذب، ووجوب الصلاة وغير ذلك، وهذه المفاهيم الذهنيّة هي مجرّد صورة هيكليّة للإسلام، ولكي تبرز في الخارج تحتاج إلى أن تلبس حلّة السلوك والحركة، والحياء هو ذلك اللباس الذي يجب أن تُكسى به سلوكيات المسلم ليظهر جمال الإسلام.

---

(١) ميلاد السيدة الزهراء (عليها السلام) لعام ١٤٣٧هـ.

(٢) كشف الغمة، ج ١ ص ٤٩٦

(٣) تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ابن شعبة الحراني، ص ٣٠٧

الحياء وموقعه في منظومة القيم الدينية

الحياء في حقيقته عبارة عن حالة روحيّة وخاصيّة إنسانيّة تكسو مفاهيمك التي تتبنّاها في ذهنك، ويجب أن تكسو سلوكك في الخارج. فنظرك إلى الآخرين – مثلا – يجب أن يخضع إسلاميّاً لمنهج الحياء، فلا تتفحّص الآخرين، ولا تعرّض نفسك للنظر بحيث يتفحّصك الآخرون، ولذا ما نراه اليوم من شياع استعراض تفاصيل الحياة على وسائل التواصل والشبكات الاجتماعيّة ليس من قيم الإسلام، ومن يفعل ذلك فهو لا يمشي على الأرض هونا، بل يقول ها أنا ذا![1]

الحياء أصل تعتمد عليه كثير من القيم، وتترتّب عليه كثير من البركات. فبعد أن يختار الإنسان الإسلام ويقتنع به لا بدّ له من تقوية روح الحياء في نفسه. والحكمة من ذلك هي زيادة سعي الإنسان للتخلّص من النقص والتستّر من ظهوره. وهو عامل احترازيّ وقائي من الوقوع في الأخطاء. ولدينا الكثير من الوصايا الأخلاقيّة التي تنصّ على ذلك. فقد جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) أن الصفة التي وهبها الله الإنسان وحرم منها الحيوان هي الحياء[2]. لذلك من أقذع الشتائم أن تصف إنساناً بأنّه بلا حياء.

كذلك نجد في الروايات تلازماً بين الإيمان والحياء، فقد جاء في الرواية «إنّ اللّٰه إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلّا مقيتا ممقتا، فإذا لم تلقه إلّا مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة فإذا نزعت منه الأمانة لم

---

(١) إشارة لصفات المؤمنين التي تحكيها الآية «... الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» فمن يفقد الحياء يفقد صفات الإيمان القرآنية ويضخم الأنا فيه.

(٢) «انْظُرْ يَا مُفَضَّلُ إِلَى مَا خُصَّ بِهِ الْإِنْسَانُ دُونَ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ مِنْ هَذَا الْخَلْقِ الْجَلِيلِ قَدْرُهُ الْعَظِيمِ غَنَاؤُهُ أَعْنِي الْحَيَاءَ فَلَوْلَاهُ لَمْ يُقْرَ ضَيْفٌ وَلَمْ يُوفَ بِالْعِدَاتِ وَلَمْ تُقْضَ الْحَوَائِجُ وَلَمْ يُتَحَرَّ الْجَمِيلُ وَلَمْ يُتَنَكَّبِ الْقَبِيحُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ... أَ فَلَا تَرَى كَيْفَ وَفَى الْإِنْسَانُ جَمِيعَ الْخِلَالِ الَّتِي فِيهَا صَلَاحُهُ وَتَمَامُ أَمْرِهِ». توحيد المفضل، ص ٧٩

تلقه إلّا خائنا مخوّنا نزعت منه الرّحمة فإذا نزعت منه الرّحمة لم تلقه إلّا رجيما ملعّنا نزعت منه ربقة الإسلام.»[1] والربقة حبل أو قيد يربط في العنق وتشدّ به البهم[2]. والمعنى أنّ الإنسان الذي يتحرّر من قيد الحياء فسيمشي إلى طرق وجهات شتى بدافع تلبية رغباته فقط، وعدم حيائه سيجرّه إلى نمط من الأقوال والأفعال والمعاشرات لا تتماشى مع الإيمان، وقد تؤدّي به إلى الهلاك، لأنّ الحياء جاذبة معنويّة تجرّ الإنسان باتجاه الفضائل، ومن ينزع منه الحياء فهو يتهاوى إلى الحضيض تدريجيا والعياذ بالله.

هذه القيمة العظيمة هي ما يكسو سلوكيات الإسلام، فالحجاب – مثلا – هو أمر قانونيّ، وخلفية هذا القانون وجوهر لبس الحجاب هو الحياء، ومقدار الحياء هو ما يفرض شكل الحجاب ونمطه.

والحجاب ما هو إلا مفردة من آلاف المفردات في السلوكيات الإسلاميّة كالكلام، والمأكل، والمشرب والملبس، والعلاقات، وغيرها، وهو يتدخّل فيها جميعا، لأنّ الحياء – وفق الرواية السابقة – يُلبِس كلّ ما يصدر عن الإنسان من عمل، ويعطيه نحواً واتجاهاً معيّنا.

الخلط بين الحياء والخجل

كثير من الناس يخلطون بين الحياء والخجل. الحياء والخجل كلاهما انفعال روحيّ، لكن الحياء ممدوح وهو توأم الإيمان، أمّا الخجل فمذموم لأنّ فيه نقاط ضعف وله آثار سلبيّة.

الخجل قد يكون معيقا عن التكامل، فالذي يخجل – مثلا– من السؤال عمّا لا يعلم، فسيبقى في ظلمات الجهل. والحال أن الجهل نقص لا ينبغي أن

(١) نهج الفصاحة، پاينده، أبو القاسم، ص ٢٨٨

(٢) لسان العرب لابن منظور، ج١٠ ص ١١٢

يحتمله الإنسان، بل يجب عليه التخلّص منه، فمحاولة إخفاء العيب لا تمحوه.

أما الحياء فهو خاصّيّة إنسانيّة وانفعال روحيّ يظهر على الإنسان إذا صدر منه خلاف ما يتوقّع منه الآخرون. ويخطئ من يظن أنّ الحياء من موانع الثقة بالنفس وقوّة الشخصيّة. بل هو خصلة وهبها الله لكلّ إنسان في حالتين:

١- حين يتصوّر أنّ فيه نقصاً سيطّلع عليه الآخرون.

٢- حين يظهر أحد عيوبه بالفعل.

وهذه الحالة موجودة بالفطرة لدى الإنسان، لكنّها مشروطة بأن يدرك الإنسان كرامة نفسه، فما لم يدرك ويطلب الإنسان كرامة النفس فلن يسعى لكسب الفضائل.

واقعنا واختلال المنظومة القيميّة

يحدث أن تختلّ الموازين عند الناس، فيعتبرون ما ليس بعيب عيباً. مثلا: الذي يسكن بيتاً متواضعاً ويزهد في اقتناء الكماليّات يعتبر الناس هذا نقصا فيه، فيستحي أن يدعو أحداً إلى بيته. كما يعتبر الناس من لا يملك شهادة أكاديمية إنساناً ناقصا، لذا نرى الكثير يخجل من كونه لا يمتلك شهادة أكاديمية متصوّراً أنّ ذلك نقص واقعي. ومن الناس من يستحي أن يسأل ليعرف، والحال أنّ الجهل هو أكبر العيوب! هذه الأمثلة في الواقع تحكي اختلالاً في معيار العيب. لأن العيب الحقيقي ليس الزهد، بل هو زيادة الرفاهية، أمّا الزهد فهو كمال. ولإعادة القيم الواقعيّة يجب تلقين المجتمع المفاهيم الصحيحة، ثم تمرينهم عليها سلوكيّاً، ثمّ تثبيت معايير النقص والكمال، لكي لا تسود قيم منكوسة في أوساطنا.

إن ما يحدث في واقعنا اليوم هو اختلال في المعايير القيميّة، وابتعادها عن روح الإسلام. مثلا: الإسلام يعتبر أنّ كثيراً من الحاجات الطبيعيّة هي ممّا يجب

ستره، يقول تعالى: ﴿فَلَمّا ذَاقَا الشّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنّةِ﴾[1] خطيئة آدم بالأكل من الشجرة تُظهر – تكوينياً – عوامل التكاثر في الحياة الدنيا، فبعد أن أكل آدم وحوّاء من الشجرة شعَرا بفطرتهما بوجوب الاستتار. من هنا يجب أن نعرف أنّه ليس صحيحاً أن نعتقد أنه لا ضير في ظهور الحاجات التكوينيّة الفطرية، لأنها في أعماقها تشير إلى النقص والحاجة. وهذا يختلف كثيراً عمّا نراه اليوم في طريقة التعاطي بين الناس، خصوصاً مع تطور وسائل التواصل اليوم.

الحياء في الحقيقة قوّة موجودة في الإنسان، إذا وضعت هذه القوّة في شخص، أو في أسرة، أو في بيئة ما؛ فسوف تبرز إسلامها ودينها بمضامين تتناسب وروح الإسلام. ولذلك نحن نحتاج إلى معرفة تنميط الحياء إسلاميّاً، لنعرف المقبول من غير المقبول من وجهة نظر الإسلام لا من وجهة نظر المجتمع والعرف الذي اختلط فيه الحابل بالنابل.

كيف نفعّل قيمة الحياء؟

كلّ الحواس تحتاج إلى تفعيل لتعمل. الباصرة – مثلا – لا تعمل إلّا مع وجود النور، فلو عاش الإنسان فترة طويلة في كهف مظلم، فإنه لن يحتمل النور لو خرج من كهفه. والقوى العقلية كذلك، فإذا عاش الإنسان جاهلاً فإنه يتعب من أدنى إعمال للعقل، ويشعر أنّه جهد يفقده راحته واسترخاءه.

ينطبق الأمر نفسه على الحياء؛ فإذا عاش الإنسان حياة التسيّب؛ فسوف يرى الضوابط ثقلاً عليه. والحال أنّ الحياء حالة إنسانيّة طبيعيّة حين يرى الإنسان لنفسه كرامة – كما أسلفنا – لأن الحياء يتناسب ومقدار شعور

(١) الأعراف/ ٢٢

الإنسان بالكرامة، فكلّما شعر بالكرامة والعزّة نفر من النقص، فإدراك الكرامة يتناسب طردياً مع الشعور بالحياء.

حياء فاطمة (عليها السلام)

يتحدّث الإمام (عليه السلام) – في الرواية التي ابتدأنا بها – عن سرّ من أسرار علاقة فاطمة (عليها السلام) بالله تعالى. ويمكن أن نقول أنه مقام من مقامات الزهراء (عليها السلام)، وهو أنّها فعلاً تستحي من الله بنحو خاص. بمعنى أنها ترى نقصها بالقياس إلى الرحمة الإلهيّة، فتسعى لرفع هذا النقص والعيب فترحم وتعطي وتشفع وتدفع الظلم وتعلّم... فتظهر فيها أسماء الله تعالى.

إن مقدار حياء الإنسان يتناسب مع موقع المطّلع على عيبه، فإذا ظهر نقص الإنسان لمن هم أدون منه ستكون وطأته عليه أخفّ. ولكن إذا ظهر عيبه عند من له موقعيّة اجتماعيّة سيستحي أكثر.

الكثير منّا يستحي من المجتمع، ويقوم بما ينبغي عليه اجتماعيّاً، والحال أنّ على الإنسان أن يستحي أمام الله، ولذا كان أعلى مراتب الاستغفار، استغفار الإنسان حياءً من الله؛ لأنّ الاستغفار هنا نابع من معرفة الإنسان بعظمة الله وشعوره بأنّه يراه.

إن حياء فاطمة (عليها السلام) من الله نابع من معرفتها بمقام الله سبحانه وتعالى أوّلاً، ورؤيتها أنّها بمحضر الله ثانياً. فالحياء قوّة روحيّة تظهر بمقارنة المحيط الذي يوجد فيه الإنسان، فإذا كان الإنسان يرى أنّ الله بكلّ شيء محيط، فأين يخفي عيبه ونقصه بالقياس إلى صفات الله؟! ولذا فهي شديدة الحياء منه سبحانه بشكل لا يمكن مقارنته بحياء الناس؛ لأنّ الطرف الذي تستحي منه لا يقاس بالناس.

ما معنى أن الله استحى من فاطمة؟

أمّا تتمّة الرواية (أنّ الله استحى منها) فلا يمكن قبوله بالمعنى المتبادر، فهو تعالى كلّه كمال، وليس في الذات الإلهيّة نقص ليستحي سبحانه من أحد. ولكن المراد أنّ حياء الله وصف لفعل الله وليس لله، وحياؤه فعله كما في سائر الأسماء المنتزعة من فعل الله، من هنا يكون حياء الله من الزهراء (عليها السلام) يعني تكميل فضائل الزهراء(عليها السلام). أي أنه سبحانه يعطيها في مقابل حيائها منه القدرة أن ترحم وتهب وتصبر وتشفع وتؤثّر فوق ما يتوهّمه بشر. ومن هنا يقول عنها الإمام الخميني (قدس سره) إنّها موجود ملكوتيّ بل جبروتيّ.[1]

(١) من أقوال الإمام الخميني (قدس سره) في فضل فاطمة الزهراء (عليها السلام): «إنّها لم تكن امرأة عاديّة، بل كانت امرأة روحانيّة، امرأة ملكوتيّة، إنسانا بتمام معنى الإنسان، بكلّ الأبعاد الإنسانيّة، حقيقة المرأة الكاملة، حقيقة الإنسان الكامل، إنّها ليست امرأة عاديّة، بل موجود ملكوتيّ قد ظهر في العالم في صورة إنسان، موجود إلهيّ جبروتيّ ظهر بصورة امرأة».

«لولا عليّ لما كان لفاطمة كفؤ» – قراءة مختلفة[1]

ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: «لو لم يُخلق عليّ لما كان لفاطمة كفؤ»[2]

هذه الرواية من الروايات المحفوظة في الأذهان، وهي – ككثير مما نحفظ – مما نتصوّر أنّنا استنفدنا كلّ ما فيها من معان وحقائق، لكن هذا التصور في الواقع هو أوّل الحجب التي تمنع الإنسان من التأمّل والتعمق في النصوص الدينيّة، فيفقد النصّ بذلك فاعليّته ويقل تأثيره. والحال أنّنا مأمورون بالاعتناء بتحليل كلام أهل البيت (عليهم السلام) لإظهار مضامينه العالية والكثيرة. فقد قالوا (عليهم السلام) «أعربوا كلامنا»[3] أي فكّكوه وحلّلوه.

حين نتأمل في النص الذي افتتحنا به الحديث سنجد أنّه مليء بأبعاد كثيرة، ربّما ليست ممّا ارتكز في الأذهان حول الكفاءة الزوجيّة، وأغلبنا يستشهد بالرواية في هذا المورد. ولكن بالتأمّل نرى أنّ هذا التوجيه تحكيم بلا محكِّم. وتحديد للإطلاق الموجود في النصّ. فالكفاءة هنا مطلقة وغير محدودة بمورد الزوجيّة. فمن يقرأ عليّاً (عليه السلام) في بعده الوجوديّ يجد فاطمة (عليها السلام) تكافئه على مستوى الوجود والحقيقة، فهما من نور واحد كما نصّت الروايات. هذا أصل كلّيّ، وهي الكبرى التي سوف نقيس عليها صغريات هذه الرواية. فإذا كان علي وفاطمة (عليهما السلام) متكافئين من حيث الذات؛ فلا شكّ أنّهما يتكافآن في المراتب الأخرى. وهو ما سيفتح لنا نوافذ جديدة في فهم الرواية.

---

(١) وفاة الزهراء (عليها السلام) ١٤٣٦هـ.

(٢) عن علي (عليه السلام) قال: قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «يا علي لقد عاتبتني رجال قريش في أمر فاطمة، وقالوا: خطبناها إليك فمنعتنا وزوّجت علياً؟! فقلت لهم: والله ما أنا منعتكم وزوجته، بل الله تعالى منعكم وزوّجه! فهبط عليَّ جبرئيل (عليه السلام) فقال: يا محمّد إنّ الله جلّ جلاله يقول: لو لم أخلق عليّاً لما كان لفاطمة ابنتك كفؤ على وجه الأرض، آدم فمن دونه!» عيون أخبار الرضا (عليه السلام)، ج ٢ ص ٢٠٣ف

(٣) الكافي، ج ١ ص ٥٢

لنتأمّل سيرة الأمير (عليه السلام) في فضائله ومراتبه ومقاماته العالية.. إنه من قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) «أعلمكم عليّ»[1]، «أقضاكم عليّ»[2]، وبناءً على فهمنا الذي أسلفناه في معنى الكفاءة، فذلك يعني أنّ للزهراء (عليها السلام) نفس المرتبة من العلم والشجاعة والقدرة على الحكم والقضاء، ومن خلال هذه الملكات تأتي مراتب الأخلاق والفضائل، لتكون الزهراء (عليها السلام) – وفق قراءتنا الجديدة – جنباً إلى جنب مع الأمير (عليه السلام) في هذه المرتبة أيضا. ثمّ لننتقل إلى مرتبة أخرى وهي تحمّل ثقل الرسالة، ولم يتحمل أحد من المسلمين همّ الرسالة بعد رسول الله كأمير المؤمنين (عليه السلام)، فإذا قرأنا الرواية على هذا المستوى أيضاً فإنّ الزهراء (عليها السلام) تقف جنباً إلى جنب مع الإمام عليّ (عليه السلام) في تحمّل همّ الرسالة.

القراءة المحدودة والخاطئة لسيرة الزهراء (عليها السلام)

المشكلة أنّنا عندما نقرأ حياة الزهراء (عليها السلام) لا نلتفت إلى هذه الجوانب في سيرتها، وحينما نستعرض الزهراء (عليها السلام) كقدوة نغفل هذه الكمالات ونلتفت إلى جانب محدود وهو الجانب الأسريّ، فنجعل الكفاءة هنا (في الرواية) زوجية فحسب، وذلك لأن تناولنا لسيرة الزهراء (عليها السلام) غالباً ما يكون محصوراً إمّا في البعد البيتيّ الأسريّ، ودور الزهراء (عليها السلام) كزوجة وربّة منزل، كأمثال الروايات التي تذكر أنّها (عليها السلام) طحنت حتى مجلت يداها، وكنست الدار حتى اغبرّ ثوبها، أو في بعد مظلوميّتها. والحال أنّ اختزال سيرة الزهراء (عليها السلام) في هذين البعدين لا يقدّمها نموذجاً متكاملاً للمرأة، ولا يقدّمها (عليها السلام) كصاحبة كفاءات مطلقة؛ لأنّه غيّب الكثير من الفضائل بين

(١) الكافي، ج ٧ص ٤٢١

(٢) دلائل الإمامة، ص ٢١٨

هذين البعدين.

إنّ القراءة المحدودة لموقعيّة الصدّيقة الزهراء (عليها السلام) تجعلنا نتعاطى مع الزهراء (عليها السلام) بشكل خاطئ، وهذه القراءة تؤثر على موقع المرأة في الخطاب الدينيّ، فتحدّ من دورها وقيمتها. فبحسب هذه القراءة المحدودة يكون العلم – مثلا – مسألة ثانويّة بالنسبة للمرأة، والرجل هو من ينبغي له طلب العلم، وما على المرأة إلّا أن تطحن حتّى تمجل يداها!

هذه القراءة لم يفرضها النصّ الدينيّ، بل هي ناتجة عن اقتطاعنا صورة ناقصة، تبعتها قراءة خاطئة لشخصيّة الزهراء (عليها السلام)، أثّرت كثيراً في ترتيب الأولويّات وفهم الدور الاجتماعيّ للمرأة المتديّنة، وحصره في الاهتمام بالبيت والأسرة وبعض الالتزامات الاجتماعيّة الضيّقة، والحال أنّ المرأة يجب أن تحمل رسالة أمّة.

إنّ قراءة سيرة الزهراء (عليها السلام) على ضوء الكفاءة المطلقة لأمير المؤمنين (عليه السلام) يجعلنا نراها المرأة التي تتحدّث بلسان أمّة، وتمتلك قدرة الاحتجاج على أمّة كاملة، لتقدّم بهذا نموذجا للحركة الاجتماعيّة والسياسيّة للمرأة المسلمة.

كفاءة الزهراء في احتجاجها

لنتأمّل في احتجاج الزهراء (عليها السلام) لأخذ حقّ أمير المؤمنين (عليه السلام) في الخلافة، ولاحظوا حكمة الزهراء (عليها السلام) في استخدام الدليل. لقد كان بإمكان الزهراء (عليها السلام) أن تقيم أكمل الأدلّة المعنويّة على غاصبيّة هؤلاء، وأقوى الأدلّة على خصائص الأمير (عليه السلام) وفضائله، كدليل أسبقية عليّ (عليه السلام) في الإسلام وأعلميّته، لكنّها لم تفعل! لأنّ الأدلّة المعنويّة لا يمكن إلزام الجميع بها. خصوصاً أذهان عوامّ الناس، فكان من حكمة الزهراء (عليها السلام) أن استخدمت أدلّة تلزم بها أبسط المسلمين فطالبت بالحقّ المادّيّ وهو (فدك).

ولكن لماذا (فدك)؟

لفدك خصوصيّات مرتكزة في أذهان المسلمين وهي:

أوّلاً: أنّها أعطيت للزهراء (عليها السلام) بأمر من الله سبحانه مباشرة، إذ نزل قوله تعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾[1] فالهبة إلهيّة، ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منفّذ مطيع للأمر الإلهّي. وهذه رحمة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لكي لا يتّهم بأنّه يتصرّف من تلقاء نفسه. من هنا يمكن عدّ إعطاء فدك للزهراء (عليها السلام) كتنصيب أمير المؤمنين (عليه السلام) في الغدير، إذ جاء بأمر إلهيّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[2] وتمليك الزهراء (عليها السلام) فدك بأمر إلهيّ كان واضحاً في أذهان المسلمين.

ثانياً: فدك لم تصل إلى الزهراء (عليها السلام) في ظرف عاديّ، بل أعطيت لها بعد فتح خيبر، هذا الفتح الذي يعلم الجميع أنّه لم يشارك أمير المؤمنين (عليه السلام) فيه أحد. ولواقعة خيبر موقعيّة خاصّة في أذهان المسلمين، فقد تعامل معها القرآن الكريم والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تعاملاً استثنائيّا، يقول تعالى: ﴿ هوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾[3] فهذه سابقة تاريخيّة، وكان الفاعل فيها أمير المؤمنين (عليه السلام) لكنّ الله ينسب الفعل إلى نفسه لأهمّيّة هذه المعركة. وبعد خيبر يعرف كلّ المسلمين أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال في شأن علي (عليه السلام): « يا أيها الناس امتحنوا أولادكم بحبه »[4] هذه المقولة تعني أنّ من يتنكّر للأمير (عليه السلام) بعد تحقيق النصر الإلهيّ على

---

(١) الإسراء/ ٢٦

(٢) المائدة/ ٦٧

(٣) الحشر/ ٢

(٤) في حديث طويل عن أنس بن مالك يرويه العلامة الأميني في كتاب الغدير « يا أيها الناس امتحنوا أولادكم بحبه فإن علياً لا يدعوا إلى ضلالة ولا يبعد عن هدى فمن أحبه فهو منكم ومن أبغضه فليس منكم ثم قال أنس وكان الرجل من بعد خيبر يحمل ولده على عاتقه ثم يقف على طريق علي وإذا نظر إليه بوجهه تلقاه وأومأ بإصبعه أي بني تحب هذا الرجل المقبل؟ فإن قال الغلام، نعم قبله وإن قال لا خرق به الأرض وقال الحق بأمك... »

يديه فلينظر في طهارة نسبه.

إذن لفدك هذه الموقعيّة وهذا الوضوح في أذهان المسلمين، ومن ينكر حقّ الزهراء (عليها السلام) في فدك مع كلّ هذا الوضوح فهو كمن ينكر فضيلة عليّ (عليه السلام) بعد خيبر.

لقد كانت فدك في يد الزهراء (عليها السلام) وعمّالها فيها، فالاستدلال بهذا الواقع الحسّي الشائع عند كلّ المسلمين هو دليل على حكمة الزهراء (عليها السلام). وقد أثبتت بهذا الدليل أنّ أولئك القوم كلّهم منافقون، فما زال المسلمون يحفظون قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[1] فإذا كانت الأمانة شرط في رعاية الأغنام كما يروي القرآن على لسان ابنة شعيب في شأن نبي الله موسى (عليه السلام) ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[2] فكيف يستأمن على أمّة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) من لم يكن أمينا؟!

إنّ إلزام الخصم بأوضح الواضحات كاشف عن سعة إحاطة، فحين تحاجج بكلام معقّد لا يفهمه إلّا الخواص فليس بالضرورة أن تنجح في إثبات الحقّ، لكن عندما تأتي بكلام يفهمه الجميع فهذه هي القوّة في الحجّة. والزهراء (عليها السلام) بحكمتها وفطنتها وشجاعتها ألزمت خصومها بهذه الواضحات، بحيث أصبحت الولاية لعليّ (عليه السلام) بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بديهية لا يمكن الاختلاف فيها. هذه كفاءة فاطميّة لا يدانيها إلّا كفاءة علي (عليه السلام).

ونختم بالكفاءة في جانب المعاناة، فقد كافأت الزهراء (عليها السلام) عليّاً (عليه السلام) حتّى في هذا الجانب. ربّما نتصوّر أنّ الأمير (عليه السلام) عانى أكثر من الزهراء (عليها السلام) لأنّه عاش عمراً أطول، وخاض حروباً وصراعات أكثر. لكنّ ذلك ليس صحيحا؛

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق.

(٢) القصص/ ٢٦

فالمعاناة لا تقاس بطول امتدادها الزمنيّ، بل بالارتدادات الروحيّة التي تنطبع في روح الإنسان، فربّ معاناة ساعة تعادل سنوات طويلة من المآسي والعناء.

والزهراء (عليها السلام) تعبّر عن هذه المعاناة بقولها:

إنّا فقدناك فقدَ الأرض وابلها * واختلّ قومك فاشهدهم وقد نكبوا[1]

قولها (عليها السلام) (فقد الأرض وابلها) يُشعر بأنّ الأرض كلّها تتحول إلى يابسة، فهي (عليها السلام) تصور حياتها بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وغصب حقّ الأمير أنها تعيش في أرض عطشى لا حياة فيها. والزهراء (عليها السلام) – في ذلك – تتحدّث عن قحط بسعة الأرض! من يتصوّر هذا العطش بعد فقد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ وأيّ معاناة أشدّ من أن تطوف ابنة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) على بيوت المهاجرين والأنصار ليشهدوا لها بالحقّ – لا أكثر – فلا يستجيب لها أحد! والله يقول في كتابه ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ﴾[2] ويقول: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُه﴾[3]

لم تجد ابنة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذه الأمّة إلّا أن أحاط بها أشرس وأشدّ رجالها، وهي بلا ناصر ولا معين، وحالها تحكيه بقولها:

الْيَوْمَ أَخْضَعُ لِلذّليلِ وأتّقي *** ضَيْمي وَأَدْفَعُ ظالِمي بِرِدائيا[4]

ألا لعنة الله على الظالمين

(١) العقد الفريد، ج ٣ ص ٢٣٨

(٢) الطلاق/ ٢

(٣) البقرة/ ٢٨٣

(٤) مناقب آل أبي طالب، ج ٢ ص ١٣١

الزهراء منّا بين العقل والنصّ [1]

ورد في زيارة الصديقة الطاهرة (عليها السلام) (يا مُمتَحَنَةُ امتَحَنَكِ اللّٰهُ الّذي خَلَقَكِ قَبلَ أن يَخلُقَكِ، فَوَجَدَكِ لِمَا امتَحَنَكِ صابِرَةً، وزَعَمنا أنّا لَكِ أولِياءُ ومُصَدّقونَ وصابِرونَ لِكُلّ ما أتانا بِهِ أبوكِ صَلّى اللّٰهُ عَلَيهِ وآلِهِ وأتانا بِهِ وَصِيّهُ صَلّى اللّٰهُ عَلَيهِ وآلِهِ، فَإنّا نَسأَلُكِ إن كُنّا صَدّقناكِ إلّا ألحَقتِنا بِتَصديقِنا لَهُما لِنُبَشّرَ أنفُسَنا بِأَنّا قَد طَهُرنا بِوَلايَتِكِ)

نريد في هذه الجلسة الجواب عن هذا السؤال:

ماذا تمثّل لنا الزهراء (عليها السلام) بين الأبحاث العقليّة والنصّ؟

ولا أريد بالعقل مطلق العقليّات، وإنّما أعني جانب الإلهيّات والحكمة، وكل ما يطرح في هذا المجال من الأدلة العقليّة الإلهيّة المترتّبة على التوحيد والخلق والبعث والنشر والحساب والقرب من الله. وأريد بالمنحى النصيّ ما ورد في شأنها (عليها السلام) من نصوص، وسنجيب عن السؤال فيما يلي:

من الواضح أنّ نصّ الزيارة الذي صدّرنا به حديثنا يتكلّم عن مقام كلاميّ وعقليّ للصدّيقة الزهراء (عليها السلام)؛ إذ أنّه في دائرة الحديث عن مقام الخلق والإيجاد، وفي دائرة بيان مرتبتها الوجوديّة، ولذلك سنقيم الدليل بالدرجة الأولى على موقع الزهراء (عليها السلام) منّا في بحث عقليّ بناءً على المبادئ التي نقيم عليها الأدلّة العقليّة في المسائل العقائديّة، ثمّ نترجم هذا النصّ ونقرؤه وفق سياق هذه الأدلّة.

(١) الكلمة بمناسبة شهادة السيدة الزهراء (عليها السلام) عام ١٤٣٦هـ.

قيمة الجانب المعرفي العقائدي في الإنسان

حينما نريد أن نحاسب أنفسنا فإنّنا غالباً ما نتّجه إلى المعاصي العمليّة والسلوكيّة، ولكن إذا بحثنا في كتب التحقيق فسنعرف بأنّ المعاصي والخطايا العلميّة هي أكبر بكثير من الخطايا العمليّة.

نعم في الفقه يبحثون عن الخطايا والذنوب العمليّة، لكن وفق مناهجنا الدينيّة الأساسيّة يُعدّ التقصير والخطأ في القضايا العلميّة والمعرفيّة والعقائديّة أشدّ أثراً في وجود الإنسان وفي مصيره الأخرويّ من الخطايا العمليّة، وذلك بأدلّة كثيرة، منها – مثلا – أنّ الإنسان الذي يقصّر في الأمور العمليّة كصلاته وصيامه يمكنه أن يوصي بقضائها بعد الموت، وتكون بذلك صحيحة ومقبولة شرعاً وقابلة للتعويض، بينما لا تقبل النقائص العقائديّة الترميم والتعويض؛ إذ لا يمكنها أن تصل للإنسان عبر أحد، ولا يمكن أن يُتجاوز عنها، لأنّ النقص فيها نقص يعرض على ذات الإنسان وحقيقته. ومن هنا نلتفت إلى عظمة وقيمة الجانب العلميّ والعقائديّ في الإنسان، بل سوف نرى أنّه هو الأصل وهو الأساس.

للشهيد الصدر (قدس سره) محاضرة نوعية بعنوان (حبّ الله وحبّ الدنيا) يقول فيها – ما مضمونه – (إن الذين تركوا أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يتركوا صلاةً، ولم يشربوا منكراً، لكن الخطيئة التي قاموا بها جرّت الأمّة الإسلاميّة والبشريّة إلى الويلات وفتحت عليهم أبواب جهنّم إلى آخر الدهر).

إذن فالأصل هو العقيدة، وهي ما يحدّد المرتبة الروحيّة الواقعيّة والحقيقيّة للإنسان، وهي المطلوبة بالأصل، وبقيّة أعمال الإنسان إنما تترتّب عليها، ومن هنا سيكون كلامنا عن مقام الزهراء (عليها السلام) وموقعها الكلاميّ وإقامة الدليل العقليّ على هذا الموقع.

مع تحليل النص

سوف نحلّل هذا النصّ تحليلاً عقليّاً وكلاميّاً.

نحن نقول في الزيارة: (فَإِنّا نَسأَلُكِ إن كُنّا صَدّقناكِ إلّا ألحَقتِنا بِتَصديقِنا لَهُما) فهذا يعني أنّ موقع الزهراء (عليها السلام) منّا بناءً على هذا النص هو أنها واسطة ملحِقة بيننا وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام)، وكذلك بيننا وبين جميع مراتب السعادة. ولها مقام الواسطة والقدرة والإمكانيّة على إتمام النقص الذي يرِد على أعمالنا ومعتقداتنا وإيماننا فيلحقنا بمراتب أعلى.

ولمزيد بيان نقول:

لنتأمل أكثر في قولنا في الزيارة (إلّا ألحَقتِنا بِتَصديقِنا لَهُما) التصديق برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فعل قلبّي وعقليّ وعلميّ، والطريق للوصول إلى هذا التصديق هو الصدّيقة الزهراء (عليها السلام) وكلّ من بحث عن طريق آخر غير الصديقة الزهراء (عليها السلام) لم يقع على هذه الحقائق الحقّة.

ويمكن في ظلّ هذا المعنى أن نفهم تعبير رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن علاقته بفاطمة (عليها السلام) بقوله: «روحي التي بين جنبيّ»[1] فالروح هي جزء من الذات والحقيقة بل الروح هي الحقيقة.

إطلالة على قانون الإلحاق في ثقافتنا الدينيّة

يذكر الله قانون الإلحاق في القرآن الكريم، كما يُذكر الإلحاق في المسائل العقائدية الدقيقة التي تبحث الجزئيات العقائدية، ويطرح هذا القانون أيضاً في ضمن بحث الوسائط.

وقد تبيّن ممّا مرّ أنّ الزهراء (عليها السلام) ملحِقة (إلّا ألحَقتِنا). من هنا توجّب أن

(١) ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «فاطمة بضعة مني وهي قلبي وهي روحي التي بين جنبي» الأمالي للصدوق ص١٧٥

نبحث في قانون الإلحاق وفي تأثيره في هذا الكون، وأن نرجع إلى الأدلّة العقليّة والقرآنيّة لإثبات هذا القانون.

معنى الإلحاق:

الإلحاق هو أن يكون هناك شخص ليس له إمكانيّة الوصول إلى مرتبة عالية، ثمّ يأتي طرف آخر من الخارج ويضيف عليه كمالاً وفضلاً وقيمة، فيلحقه بتلك المرتبة. ويوضّحه مثال طالب المدرسة الذي يحصل على درجة لا تؤهّله للصف اللاحق، لكن يمكن أن يتدخّل طرف ويضع له علامة إضافيّة تجعله يلحق بمن انتقلوا لمرحلة أخرى. هذا الطرف المتدخّل يسمّى ملحِقا.

إن مثل هذا الإلحاق للناقصين ليكملوا، ولذوي المراتب الدانية لتعلو مراتبهم موجود في نصوصنا الدينيّة.

أنواع الإلحاق: يوجد نوعان من الإلحاق:

١- إلحاق نَسَبيّ: وقد ورد ذكره في القرآن الكريم إذ يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1] ومع أن القرآن يتحدث عن أحوال الناس يوم القيامة فيقول: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[2] لكن هذه الحال ليست عامّة والفرار ليس مطلقا. نعم، إذا كانت الأبوّة والأمومة مبنيّة على البعد المادّي والدنيويّ، فلن تبقى هذه العلاقة، وسوف يفرّ الإنسان منها يوم القيامة، ولكن لو أنّ هذه العلاقة النسبيّة بنيت بناءً له بعد أخرويّ فإنّ الله سبحانه يتدخّل ويلحق الذراري الناقصين بآبائهم وأجدادهم.

الآية دقيقة، فهي تقول في البدء: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وهذا معنى

(١) الطور/ ٢١

(٢) عبس/ ٣٧

الإلحاق، إذ تزال أسباب النقص عن الناقص، ويعطى أسباب الترقّي، ثم يرفع ويلحق بمن هو أعلى منه.

والإلحاق يقتضي بأن ينتقي الباري سبحانه من الآباء والأمهات من هم الأعلى درجة ويلحق بهم من هم أدون درجة. ولا يقتصر الإلحاق على الأبناء بل على الذريّة كلّها. وهذا كرم إلهيّ.

ثم تقول الآية: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي أنّ كلّ إنسان مرتهن بالعمل الذي قدّمه، ولكن الذي يفكّ رهان هؤلاء هو إلحاقهم بآبائهم من قبل الله الذي هو أشفع الشافعين.

ما تقدّم هو إلحاق بسبب النسب، والرحِم في الدين – كما نعلم – ليست متولّدة في عالم الدنيا لتنتهي في عالم الدنيا، وإنما هي تلوذ بالعرش، أي أنّ موقعها عرشيّ في الأصل، فلذلك هي تحقّق هذا النوع من الإلحاق.

٢- إلحاق سببيّ: وهو ما تقوم به الزهراء (عليها السلام) كما يوضّحه نصّ الزيارة.

هذا النوع من الإلحاق أهمّ وأقوى تأثيراً من الإلحاق النسبيّ. وهو يعني أن يعطي الله شخصاً قدرة على التأثير بسبب هو أقوى من كلّ الأسباب، ومنه سمّي سببيّا. وأعلى سبب يمكن أن يلحق الإنسان الدوني بالدرجات الرفيعة هو مقام الزهراء (عليها السلام)، والأدلّة على ذلك كثيرة، روائيّة وعقليّة.

لكن دعونا نرد بداية على من ينكر معاني الشفاعة والإلحاق والواسطيّة. هؤلاء لهم دليل كلاميّ واحد مفاده: أنّ الله سبحانه هو أرحم الراحمين، وهو من يحول بين المرء وقلبه، وهو معكم أينما كنتم، فلماذا نحتاج إلى واسطة غير الله تعالى لتزيح نقائصنا؟!

وللرد على هذا نقول:

هناك مسألة عقليّة يجب معرفتها تتعلّق بالفرق بين الإضافة في الأمور الماديّة والإضافة في الأمور المجرّدة والمعنويّة:

الإضافة في الأمور التي لها بعد مادّي متساوية دائما، في حين أنها قد لا تكون متساوية بين المتضايفين في الأمور المجردة. ولمزيد من الإيضاح نقول: إذا كان هناك شيئان مادّيان، أحدهما مضاف إلى الآخر، فإنّ نسبة الإضافة بينهما تكون متساوية دائما. فالمسافة – مثلا – بين الكأس ويدي هي نفس المسافة بين يدي والكأس. أمّا في الإضافة المعنوية فالتفاوت بين الطرفين يمكن أن يكون من جهة واحدة، وليس من جهتين، فقد يكون طرف منهما قريب والآخر بعيد. ونحن نفهم ذلك في علاقاتنا، ففي علاقات المحبّة – مثلا – قد يحبّ أحد الطرفين الآخر أكثر ويكون أحدهما للآخر أقرب، هذا لأنّ النسبة في البعد والقرب في الأمور المعنويّة غير متساوية.

الله قريب ولكنّنا بعيدون!

في علاقتنا بالله الأمر شبيه وقريب. ولنوضح ذلك نقول: إن الله سبحانه سميع وبصير وعليم، لكن إذا كان بقرب هذا السميع البصير العليم من هو صمّ بكمّ عميّ فهل يستفيد إذا كلّمه الله؟ كلّا بالطبع؛ لأنّه فاقد للقدرة على السمع لوجود الفاصلة بينه وبين الله، ولكنها ليست فاصلة طرفينيّة بل هي فاصلة من طرفه هو.

أستاذنا الشيخ الجوادي الآمليّ يضرب مثالاً لطيفاً لتوضيح النسبة المعنوية فيقول: لو كان هناك شخص لا يسمع ولا يرى ولا يشعر، وعاد له ابن من سفر طويل وبادره الابن بالتحية والسلام والترحيب، فمع قرب الابن ومشاعره الجيّاشة إلّا أنّ الأب بعدم استعداده للسمع والبصر يعدّ بعيدا. فالنسبة ليست طرفينيّة في العلاقة هنا، بل هي من طرف واحد، والنقص من طرف واحد. بناءً على هذا المثال سنفهم طبيعة علاقتنا بالله، وسيتّضح ردّنا على من ينكر الواسطيّة والإلحاق.

الله سبحانه أقرب للإنسان من حبل الوريد، ولكن ليس معنى ذلك أن الإنسان قريب من الله سبحانه بمقدار قرب الله منه، لأنّه مع أنّ الله قريب سميع بصير رحيم، إلّا أنّ ذلك الطرف – الإنسان – لا يمتلك القدرة على السمع والبصر ليرى قرب الله منه، وما لم يتدخل قانون ليضيف عليه كمالات فيترجم له السميع البصير فلن يتمكّن من أن يقترب من الله سبحانه.

نحن حين نسمّي أهل البيت (عليهم السلام) (تراجمة لوحيه)[1] فهذا لا يعني أنّ الوحي ينزل عليهم بلغة ثم يترجمونه لنا بلغة أخرى لنفهمها، بل إنّ هذا العالم الوحيانيّ لا يمكن لنا أن نتّصل به إلّا عبر هذه الوسائط التي تتلقّى الوحيانيّة ثم تترجم لنا هذه الوحيانية.

رحمة الله ألا تحتاج إلى ترجمة؟ فيض الله ألا يحتاج إلى ترجمة؟ نحن لا نستوعب رحمة الله ولا فيض الله سبحانه. لذا لا بّد من واسطة، ولا بدّ من وجود من يملك هذه الأهليّة لأن يقطع المسافة من طرف واحد. طرفنا نحن. لأنّ الفاصلة والمانع منّا، لذا نحن نحتاج لمن يُلحقنا ويرفع نقصنا. وهذا الإلحاق إلحاق سببيّ، أي أنّه يدخل أسباباً تغيّر وضعيّة هذا البعيد وتحوّله إلى قريب. وهذه الواسطة الملحِقة لابدّ أن تكون موجودة دائماً وفي كلّ المراحل.

الزهراء (عليها السلام) واسطة ملحِقة

عندما نصدّق بالصديقة الزهراء (عليها السلام) فهي ستحقّق لنا هذا الإلحاق السببيّ برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام). والذي يلحَق برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يعني أنّه يلحق بالسعادة والجنة والمغفرة، لأنّ أعلى مرتبة يمكن أن نتصوّرها في الإلحاق هي أن نلحق بالمحمّديّة.

---

(١) الزيارة الجامعة.

اللطيف أنّ الزيارة تذكر هذا المدّعى الذي قدّمناه ودليله، فتقول: (فإنّا نسألك إن كنّا صدّقناك إلّا ألحقتنا ...) يعني أنّ مراتبنا متدنّية ونحن ناقصو الأهليّة ونحتاج إلى إلحاق. أي نحتاج إلى قطع مراحل، وإضافة علم، إدراك، معرفة، عمل، سعة وجوديّة تؤدّي إلى علوّ الدرجات حتى نصل إلى الإلحاق برسول الله (صلى الله عليه وآله). والذي يلحق برسول الله (صلى الله عليه وآله) كما قلنا ينال أعلى الدرجات. هذا هو المدّعى.

أما الدليل: فهو مقدّمة الزيارة (يا مُمتَحَنَةُ امتَحَنَكِ اللّهُ الّذي خَلَقَكِ قَبلَ أن يَخلُقَكِ، فَوَجَدَكِ لِما امتَحَنَكِ صابِرَةً) فلأنّها (عليها السلام) تحمّلت أشقّ ابتلاء وامتحان فهذا دليل على كونها ملحِقة، فبمقدار ما يتحمل الإنسان من مشقة في سبيل الله، وفي سبيل هداية الناس، يهب الله سبحانه وتعالى له قدرة تكوينية على الإلحاق الذي هو نوع من أنواع الشفاعة. والروايات متضافرة في هذا المعنى، فقد ورد أن العالِم يشفع يوم القيامة.

والكلام هنا عن عالم امتحان وابتلاء قبل أصل الخلق، وهذا يحتاج لأن نفهمه ونتصوّره، وذلك مما يشقّ على العقول، لكن لو قرأنا ما يمكننا إدراكه من الواقع الخارجيّ، فسنراه يشهد على أنّ امتحانات الزهراء (عليها السلام) هي امتحانات نوعيّة، لم يبتلَ بها حتى سائر المعصومين والأنبياء (عليهم السلام). فمن موقعها من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، إلى تحمّلها مسؤوليّة الرسالة، إلى موقف المسلمين منها بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) كلّ ذلك عالم مليء بالمظلوميّات.

أريد في الختام أن أتعرّض لمظلوميّة وابتلاء خاصّ أشارت له (عليها السلام) في خطبتها الفدكيّة حين قالت: « يا معشر النقيبة وأعضاد الملة وحضنة الإسلام ما هذه الغميزة في حقّي والسنة عن ظلامتي؟! أما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) أبي يقول: المرء يحفظ في ولده؟! »[1]

(١) بحار الأنوار، ج ٢٩

حينما يبتلى الإنسان بظلم عامّة الناس فهذا النوع من الابتلاءات يمكنه أن يتحمله، كما يمكنه أن يجد لهؤلاء العوامّ مبرّراً في ظلمهم، كعدم معرفتهم قدره أو ما شاكل، لكن حينما يظلم الإنسان ممّن كان عضيداً له (وأعضاد الملّة) فهذا بلاء من نوع خاص! وتقول: «أيْها بَنِي قَيْلَةَ! أأُهْضَمُ تُراثَ أبِيَ وَأنْتُمْ بِمَرْأى مِنّي وَمَسْمَعٍ، ومُبْتَدأ وَمَجْمَعٍ؟! تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ، وتَشْمُلُكُمُ الْخَبْرَةُ، وَأنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالأَداةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمُ السِّلاحُ وَالْجُنَّةُ؛ تُوافيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلا تُجيبُونَ، وَتَأْتيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلا تُغيثُونَ؟!»[1] فأيّ صرخة تلك التي لم يغثها الأنصار!

ألا لعنة الله على الظالمين.

(١) الخطبة الفدكية.

في الزهراء (ﷺ) لا تتعدّد القراءات[1]

للزهراء (ﷺ) مقامات علمية كثيرة؛ بل إن الأصل في مكانة الزهراء (ﷺ) الواقعيّة هو مكانتها العلميّة، وما مقامها السلوكيّ إلّا ظهور وتجلّ وشعاع أرضيّ من كوكبها الدرّي الواقعيّ. وسنضيء في هذه الوقفة على شيء من مقاميها العلميّ والسلوكيّ:

١- مقامها العلمي:

سأتوسّل لبيان الفكرة هنا بمقارنة مقام الزهراء العلميّ بالقرآن الكريم:

نحن نقرأ القرآن وندرسه ونحفظ ألفاظه، ونبالغ في دراسة تفسيره؛ ولكنّنا نعلم في قرارة أنفسنا أنّنا لا يمكن أن ندرك مغازي معانيه، على خلاف كتب سائر الديانات الإبراهيميّة، فمع أنّ أحكام هذه الكتب إلهيّة؛ إلّا أنّ قوالبها أرضيّة إنسانيّة تتغذّى وتنمو من قدرات البشر، فتتنوّع في الدلالات وتتعدّد في القراءات بتكثّر هذا البعد الناسوتيّ.[2]

أمّا القرآن فهو كتاب سماويّ صرف، إلهيّ في كل كلماته وعباراته، لم يمتزج بكلمة؛ بل ولا بحرف أرضيّ، فالقرآن هو كلام الله الواحد، وهو ذو مقصد واحد، ومهما تعدّدت دلالات معانيه فإنّنا نذعن أنّ هناك معنى ومقصداً إلهيّاً واحداً يراد منها ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[3] كما نُذعن أنّ الخلاف في تفسيره وتأويله، والاختلاف في معرفة مقاصده، و التكثّر والتعارض الظاهريّ بين مداليل بعض آياته لا يعني تعدّد قراءاته؛ وتعدد

(١) الكلمة بمناسبة شهادة الصديقة الزهراء (ﷺ).

(٢) الناسوت: الطبيعة البشرية، ويقابله اللاهوت بمعنى الألوهية. ويمكن أن يعبّر أيضا بالملك والملكوت.

(٣) النساء/ ٨٢

القراءات لنصوصه راجع لنقص في فهمنا وقدرتنا على استنطاقه، فنحن مزيج مركّب من بعد روحي ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1]، وبعدٌ أرضيّ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[2] ومن الطبيعي أن تسانخ علومنا ومعارفنا هذا المزيج.

وبمقارنة بين الزهراء (عليها السلام) في مقامها العلمي والقرآن الكريم، نجد الروايات التي تتحدّث عن نشأتها تحكي بأنّ أصلها تفّاحة من الفردوس أعطيت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من السماء، لم يخالطها شيء، ولم تخرج من زرع ولا نبت ولا شجر شرقيّ أو غربيّ. إنّها ليست من عالم الأرض، هذا العالم هو قطع متجاورات، ويفضّل الله بعضها على بعض في الأُكل وفي الآثار والنتاج، وهذا التفاوت في نبات الأرض لا ينبغي أن يطال حقيقة الزهراء (عليها السلام)، فمنبتها وزرعها ونماؤها من نور واحد وبقوّة واحدة. من هنا كانت فضائلها العلميّة كالقرآن الكريم لم يخالطها شيء، ويشهد على ذلك اعتزال النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أمّها خديجة الكبرى وانقطاعه إلى الله حتى رزق بالزهراء (عليها السلام)، تماماً كما كان ينقطع في غار حراء لتلقّي القرآن الكريم.

وكما أن القرآن وجود إلهيّ كامل لم يخالطه حرف أرضيّ، ومقصده واحد لا يتعدّد؛ كذلك وجود الزهراء (عليها السلام) هو وجود سماويّ، ولا تتعدّد فيها القراءات، ومن هنا لا يُعذر في رضاها وسخطها وحبّها وبغضها أحد، ولا معنى أن نلتمس عذراً لمن أغضبها.

---

(١) الحجر/ ٢٩

(٢) طه/ ٥٥

٢- مقامها السلوكيّ العمليّ:

يتّضح علوّ مقام الزهراء (عليها السلام) السلوكيّ بالالتفات إلى أنّه إذا كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد بُعث ليزكّي الناس ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ويأخذ من أموالهم صدقة يطهّرهم ويزكّيهم بها؛ فكيف نتصور أداءه لهذا الدور في شأن ابنته وحبيبة قلبه وثمرة فؤاده؟!

وإذا كان من أدوار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تحريض المؤمنين على القتال والجهاد وقول الحقّ، فيستجيب له من يستجيب ويتخلّف عنه من يتخلّف؛ فكيف نتصوّر جهاد ابنته الصدّيقة الزهراء (عليها السلام) واستجابتها لتحريض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للدفاع عن الدين، والجهاد لإعلاء الحقّ؟! إنّني لأحسب أنّ كلّ ما نقرؤه في مجالسنا حول استماتتها (عليها السلام) في سبيل الحقّ هو نقطة في بحر جهادها وصبرها وتحمّلها.

الزهراء العليمة

ورد عن الإمام العسكري (عليه السلام) قوله : « نحن حجج الله على خلقه، وجدتنا فاطمة حجة الله علينا » وفي لفظ آخر « وأمنا فاطمة حجة علينا »[1]، فإذا كان الأئمة حجج الله على الخلائق، كل الخلائق، جنّها وإنسها، وحيّها وجمادها، والزهراء (عليها السلام) حجة عليهم، فهو مقام عظيم وشرف رفيع لها صلوات الله عليها .

تدرجت الأديان في بيان مكانة المرأة، وها هو القرآن يحدثنا عن آسية المقاومة، ومريم المقدسة، وآخر المقامات هو مقام فاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) المرأة التي كملت في كل شؤونها . ومن أهم وأبرز كمالاتها سعة علمها، ولذا كان أحد أسمائها (العالِمة) .

إن العلم هو الذي يرفع الإنسان ويغيّر جوهر ذاته، ولذلك لاحظوا القرآن حينما يتحدث عن اختلاف الناس يقول : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[2] هذه الرفعة ليست رفعة ظاهرية أبدا، بل هي توضح لنا أن الإنسانية درجات كثيرة والإيمان يرفع هذه الدرجات .

وببيان أوضح : كل إنسان من حيث الظاهر يمشي على رجلين وينظر بعينين لكن هناك شيء هو الأصل وهو مخفيّ وعميق، وهو يمثل حقيقة الشخصية الإنسانية، هذه الشخصية قد تنحط وتهوي – والعياذ بالله – ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾[3] والهوْي : هو النزول من الأعلى إلى الأسفل، ولم تحدد الآية إلى أين سينزل هذا المتهاوي بسبب غضب الله، بل تكتفي بالقول

---

(١) أطيب البيان في تفسير القرآن، ج ١٣ ص ٢٥٥

(٢) المجادلة/ ١١

(٣) طه/ ٨١

بأنه سيهوي إلى الحضيض ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾[1]

ولكننا – بالطبع – لا نرى هذا الهوْي ولا نحس به ماديا، وكثيرون يعيشون وهم يهوون ويهوون ولكنهم لا يشعرون، هذا الهوْي واقع وحقيقة في الشخصية ولكنه لا يمكن أن يرى بالعين الظاهرة.

وفي المقابل هناك من يرتفع بشكل دائم، والذي يرتفع في الواقع هو شخصيته في ملكوت الله أولاً ثم تحصل له الرفعة عند الناس، ولذا جاء في الأخبار أن الملائكة لتضع أجنحتها تحت طلاب العلم[2] هذه ليست كناية بل هو تفسير دقيق وحقيقي لما يجده الإنسان من سعة في روحه وفكره وعقله وقلبه حينما يسمع المعارف الحقة.

المعرفة هي دور الإنسان الأول

حينما تدركُ علماً فأنت تمارس إنسانيتك في بعدها الملائكي، ولأن الملائكة سجدت للإنسان يوم عرفت أنه يعلم ما لا تعلم؛ فهي أيضاً إذا وجدت إنساناً يزداد علماً رجعت لأداء هذا الدور ووضعت أجنحتها تحت أقدامه.

حينما يزداد الإنسان معرفة فهو يبدأ بممارسة الدور الأول الذي خلق من أجله، ويتبين له أن كل أعماله الأخرى كانت ثانوية وربما لذلك جاء في تفسير الآية، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[3] أي ليعرفوا.[4]

ولتقريب هذا المعنى نقول: حينما يتحدث القرآن عن العبادة التي هي

---

(١) الحج/ ٣١

(٢) عن الرسول (ﷺ): «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِهِ، وَإِنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحُوتُ فِي الْبَحْرِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَ لَا دِرْهَماً وَ لَكِنْ وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» الكافي، ج١ ص ٣٤

(٣) الذاريات/ ٥٦

(٤) عن سلمة بن عطاء عن أبي عبد الله (ﷺ) قال خرج الحسين بن علي (ﷺ) على أصحابه فقال: «إن الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه» علل الشرائع، ج١ ص٩

الغرض الأساس من الخلق يجعل العبادة صراطاً وطريقاً ومقدمة لشيء آخر ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[1] فالعبادة ليست النهاية والغاية بل هي الصراط فما دمت في حال عبادة فإن عملك ليس لغْويا، ولكنها ليست إلا مقدمة ولا يمكن أن يجد الإنسان فيها نفسه. وإنما يجد نفسه ويحس بذاته ويكمل جوهره ويرتفع عن المقدمات حينما يتعلم ويزداد معرفة، حينها يرتفع واقعا.

فالفارق بين العالم والجاهل بالله والدين والقيم والحقائق ليس فارقاً اعتبارياً ولا اجتماعيًا، بل إن العالِم يجد نفسه في نفسه، وغيره يبحث عن نفسه خارجاً عنها، هذا القانون واقعي إلهي لذا قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[2] فكما ينسب القرآن الأعمال التكوينية لله كخلق السماوات والأرض، كذلك هذه الرفعة في الدرجات يجعل لها وصفاً إلهيا.

ومن هنا حينما أراد الإمام زين العابدين (عليه السلام) أن يضع أعلى وسام على كتف عمته زينب (عليها السلام) – كما يعطي القياديون أوسمة الشجاعة والمراتب العالية بعد الحرب والانتصارات لكبار القادة – قال: «يا عمة أنت بحمد الله عالمة غير معلمة وفهمة غير مفهمة»[3] وكل الأوسمة الأخرى من الشجاعة والشهامة والصبر هي من نتاج العلم والمعرفة.

ولذلك فإن العالِم يكتسب مكانة فطرية في النفوس الطبيعية والأمزجة السليمة من الانحراف. فأنت بشكل طبيعي توقّر العالم وتحترمه، خصوصاً

(١) يس/ ٦١

(٢) المجادلة/ ١١

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٥ ص ١٦٢

إذا بدت لك معالم علمه وحسن فهمه؛ لأن هذه الرفعة رفعة إلهية. ولقد سعى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جاهداً لكي يكشف عن مكنون علم الزهراء (عليها السلام)، فهو يسأل الصحابة في المسجد، وفيهم كبارهم عن خير شيء للمرأة، فلا توافق إجاباتهم مراد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لتجيب الزهراء (عليها السلام) بمراده فتقول: «خير للمرأة أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل» فيقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «صدقت إنها بضعة مني»[1]. والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يظهر هذا التقدير للزهراء (عليها السلام) لأن لازم العلم التوقير. جاء عن الأمير (عليه السلام): «مِن عُرِف بالحكمة لَحَظَته العيونُ بالوَقار والهيبة»[2]. وقيل: «من تعلم رُفع»، وهذه الأقوال – بطبيعة الحال – لا تعطينا أمراً مولوياً باحترام وتوقير العالم بل هي تتحدث عن حكم الفطرة والوجدان، لأن هذه الشأنية لأهل العلم شأنية تكوينية واقعية.

علم فاطمة (عليها السلام)

إنّ ما ندّعيه نحن الشيعة من وجود مصحف لفاطمة ليست مسألة بسيطة وتقف في النقاش على إثبات أننا لا نقول أنه قرآن ثانٍ وحسب؛ بل إن مصحف فاطمة هو أحد مقاماتها الإنسانية الراقية، فهو من تعليم جبرئيل. ولا يجب أن يشّوش علينا المنكِرون هذا المعنى بما يتضمن من معانٍ رفيعة، ويحدّونا في دائرة الانشغال بإثبات أنه ليس قرآنا، فالقضية أعمق من ذلك، إنه مقام رفيع للزهراء (عليها السلام).

إن هذا المقام لفاطمة (عليها السلام) – مضافاً إلى ما أسلفنا من قدرة فاطمة (عليها السلام) على الإجابة عما يعجز عنه كبار الصحابة – هو بنفسه دليل عملي على حجّيتها عليهم، ومن أسباب إظهار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الحجيّة وهذا المقام

(١) حلية الأولياء، ج٢ ص٤٠

(٢) تحف العقول عن آل الرسول.

العلمي للزهراء (ﷺ) هو تأمينها مستقبلاً من أن تؤخر وقد قدمها الله، وأن يُجهل عليها وقد علّمها الله، وأن يجترأ عليها وقد رفعها الله.

ولكن كل هذه المؤمّنات – للأسف – لم تحصّن الزهراء (ﷺ) من جور الأمة. وقد عبرّت (ﷺ) عن فصل من فصول تلك المظلومية بقولها: «أَصْبَحْتُ وَ اللَّهِ عَائِفَةً لِدُنْيَاكُمْ، قَالِيَةً لِرِجَالِكُمْ، لَفَظْتُهُمْ قَبْلَ أَنْ عَجَمْتُهُمْ، وَشَنَأْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ سَبَرْتُهُمْ، فَقُبْحاً لِفُلُولِ الْحَدِّ وَ خَوَرِ الْقَنَاةِ وَ خَطَلِ الرَّأْيِ وَ ﴿ ...لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾[1] ...»[2] مشيرة إلى ما جرى عليها لحظات هجوم القوم على دارها فإن مقتضى الرجولة – ولو لم يكن هناك دين ولا شريعة سماوية – أنه إذا ما رأى الرجل امرأة حرّة مصونة تتعرض لإحراق دارها ظلماً، فإن مقتضى الرجولة أن يدافع عنها ويحركه حس الغيرة البشري ليدفع عنها الرجال الطغام، خصوصاً إذا أخذنا الظرف النسائي الخاص الذي كانت فيه (ﷺ).[3]

ولكن من يرضى بأكبر معصية وهي غصب علي (عليه السلام) حقه، فلن تبقى فيه أي مشاعر طبيعية، و لا غيرة على الدين والنبوة، ولن يبقى له حس رجولي. نعم تفقد كل القيم الجميلة معناها في دنيا هؤلاء.

ويطابق هذا الكلام نفسه مقولة علي (عليه السلام) حين نفض التراب من يديه بعد أن دفنها فنظر إلى السماء والأرض وقال: «قد اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ، وَأُخْلِسَتِ الزَّهْرَاءُ فَمَا أَقْبَحَ الْخَضْرَاءَ وَالْغَبْرَاءَ»[4]

---

(١) المائدة/ ٨٠

(٢) معاني الأخبار، ص ٣٥٤

(٣) أي كونها حاملا (ﷺ).

(٤) الكافي للكليني.

فأي جمال لسمائنا التي تزينها النجوم كالمصابيح والأرض التي جعلها لنا الله مطايا نمشي على مناكبها حين تدفن الزهراء (عليها السلام) سراً ويعفى ثراها، ما قيمة الأرض وهي تفتقد معالم قبر الزهراء (عليها السلام)؟!

ألا لعنة الله على الظالمين